دكتور
فتحي عبد القادر فريد
أستاذ البلاغة المساعد
بكلية اللغة العربية بالقاهرة

بحوث ومقالات في البلاغة

الطبعة الأولى

١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م

توزيع

مكتبة النهضة المصرية
٩ ش عدلي بالقاهرة

المحتوى

بسم الله الرحمن الرحيم

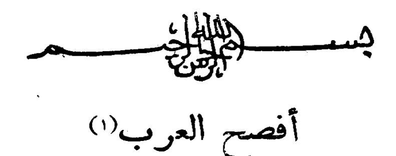
مقدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

وبعد :

فهذه آراء ومواقف لى مع الدرس البلاغى نشرت من قبل على صفحات عدد من الحوليات والمجلات العربية وقد رأيت جمعها فى كتاب ليعم نفعها الباحثون ويهون الرجوع إليها وراجياً أن تكون لبنة فى صرح البلاغة العربية وعلى الله قصد السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .



أفصح العرب[1]

اتفق الباحثون على أن القرآن الكريم كان المعجزة الكبرى له عليه الصلاة والسلام واتفقوا أيضاً على أن إعجاز القرآن بالدرجة الأولى فى بلاغته ودقة نظمه ، إذ كان العرب الأول الذين عاصروا نزول القرآن أهل فصاحة وأرباب بلاغة : الشعر أنفس بضاعتهم والنثر أربح تجارتهم .

واتفقت الآراء كذلك على أن سيدنا رسول الله ﷺ كان أفصح العرب وأعلمهم بوجوه التخاطب وسبل التحدث وأن كلامه عليه الصلاة والسلام يأتى بعد كلام الله فى البلاغة وقد أثر عنه ﷺ : أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش ، ونشأت فى بنى سعد بن بكر » .

وإذا كانت البلاغة فى أكثر معانيها شهرة تعنى : « مطابقة الكلام لمقتضى الحال » ، فإن كلامه ﷺ قد بلغ الغاية فى ذلك ، حيث كان يخاطب كل فرد بما يناسبه ، ويتحدث مع كل جماعة بما يناسبها لغة وفكراً لدرجة جعلت الصديق أبا بكر رضى الله عنه يسأله عليه الصلاة والسلام متعجباً عن سر هذه البلاغة التى لم تتوافر لأحد من العرب وقد كان أبو بكر أعلم الناس بأحوال العرب وأنسابهم فيقول أبو بكر :

لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك فمن أدبك (أى علمك) فقال له ﷺ : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

---

(١) نشر هذا المقال بالعدد : ٩٨ السنة الثانية من مجلة : اللواء الإسلامى التى تصدر بمصر بتاريخ ٣ من ربيع الأول ١٤٠٤هـ ٨ من ديسمبر ١٩٨٣م.

وقد قال ﷺ ذلك أيضاً لعلى كرم الله وجهه الذى تعجب من مخاطبة الرسول ﷺ لبعض وفود العرب الذين قدموا إليـــه بما يتفق ولغة وحال كل وفد كأنه عاشرهم ودرس لغة كل قبيلة منهم وخصائص كلامها وذلك فى سواله له عليه الصلاة والسلام : « نحن بنو أب واحد ونراك تكلم الناس بما لا نعرف أكثره فمن علمك ذلك » ؟ .

لقد كان ﷺ خير من يعرف كيف يضع قوله الموضع المناسب ، فقد أثر عنه ﷺ : « وأوتيت جوامع الكلم » وذلك فى مقام عده للفضائل والمزايا التى اختصه الله بها ، ومع ذلك فإنه كان يطيل الكلام إذا كان المقام يقتضى الإطالة ، وحالة السامعين تستدعى الإطناب ، من ذلك مارواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه ﷺ خطب بعد العصر فقال : « ألا إن الدنيا خضرة حلوة ، ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا يمنعن رجلا مخافة الناس أن يقول الحق إذا علمه » .

قال أبو سعيد : ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف(١) فقال : « إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى » .

وهكذا لم يكن كلامه ﷺ يتخذ طابعاً واحداً من جوامع الكلم التى اختصه الله بها ، بل كان يتنوع بين الإيجاز والإطناب موافقة لحال السامعين ، وله عليه الصلاة والسلام من محكم العبارات وموجزها مالم يتفق مثلها لفصيح أو بليغ وما يخشع لروعة تصويرها ودقه نسجها البلغاء والمتأدبون مثل الذى يقوله على كرم الله وجهه : « ماسمعت كلمة غريبة

---

(١) السعف : أغصان النخل مادامت بالخوص ، فإذا زال الخوص عنها قيل : جريد .

من العرب(١) إلا وسمعتها من رسول الله ﷺ كقوله عليه الصلاة والسلام فى حديث الفتنة : « هدنة على دخن » فالهدنة : الصلح والمهادنة ، والدخن : تغير الطعام إذا أصابه الدخان فى حال طبخه فأفسد طعمه — وفى العبارة النبوية تصوير بيانى لا يعدله تصوير ، وذلك أن الصلح إنما يكون موادعة ولينا ، وانصرافا عن الحرب ، وكفا عن الأذى ، وهذه كلها من عواطف القلوب الرحيمة ، فإذا بنى الصلح على فساد وكان لعلة من العلل غلب ذلك على القلوب فأفسدها ، كما يغلب الدخن على الطعام ، فلا يجد آكله إلا رائحة هذا الدخان ، والطعام من بعد ذلكم مشوب مفسد .

ويصور « الجاحظ » ذلك الجانب من بلاغته ﷺ الذى يتمثل فى استعمال الإيجاز فى موضعه المناسب ، والإطناب فى مقامه الملائم فيقول : « كلامه ﷺ هو الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف ، استعمل المبسوط فى البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهذا الكلام الذى ألقى الله المحبة عليه ، وغشاه بالقبول ، وجمع بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام وهو مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب . بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم . لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل

---

(١) يريد : التركيب البيانى .

مذهباً ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً . ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين فى فحواه من كلامه ﷺ(١) .

وسيدنا رسول الله ﷺ صاحب تلك البلاغة العالية فرد من البشر « قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » تتفق بلاغته مع بلاغة البشر فى وضوح أثر الإنسان وروحه فيها ذلك الأثر الذى لا يخلو منه إلا كلام رب العزة ، وتختلف معه من حيث : لزوم كلامه ﷺ السمو فى كل المواطن والإصابة فى جميع الأحوال والمقامات وذلك لم يتفق لشاعر أو ناثر إن أصاب مرة أخطأ مرات وإن حالفه التوفيق وحاز قصب السبق فى غرض من الأغراض قصر وجانبه الصواب فى غيره .

أما العوامل التى يرجع إليها ذلك البيان الرائع فإنها تتمثل فى أمور منها :

١ — نشأة الرسول ﷺ اللغوية النقية فى أحضان البادية ، وبين أفصح القبائل ، فكان مولده فى بنى هاشم ، وأخواله فى بنى زهرة ، ورضاعه فى بنى سعد بن بكر ، ومنشؤه فى قريش ، ومتزوجه فى بنى أسد ، ومهاجره إلى بنى عمرو وهم الأوس والخزرج من الأنصار ، ولم يخرج عن هؤلاء فى النشأة واللغة ، وقد كان فى قريش وبنى سعد وحدهم مايقوم بالعرب جملة ، ولذا قال ﷺ : « أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش ، ونشأت فى بنى سعد بن بكر » فكان له من اللسان العربى أفصحه وأبلغه بهذه النشأة البدوية القرشية الخالصة .

٢ — موهبته عليه الصلاة والسلام التى تتمثل فى فطرة صافية ،

---

(١) البيان والتبيين : ٢/٢٩١

(٢) سورة الإسراء : ٩٣

وقد أذكى هذه الموهبة : دوام الفكرة ، وطول السكوت ، وحب الخلوة التى كانت له أعظم مرب ، فقد صفت قلبه من كل مشاغل هذا العالم ، وقيل فى تلك الموهبة : « صفاء الصفاء » .

٣ — تأثره عليه الصلاة والسلام بالقرآن الكريم فى بيانه المعجز ، وإذا كان ذلك التأثر حظاً مشتركاً بين الناس جميعاً إلا أنه كان أبين وأظهر فيه عليه الصلاة والسلام لأنه أبلغ الناس وأقدرهم على فهم الوجوه البلاغية وأسرار الإعجاز القرآنى فعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه ﷺ قال : « أنا محمد النبى الأمى لا نبى بعدى ، أوتيت جوامع الكلم وخواتمه ، وعلمت خزنة وحملة العرش »(١) .

٤ — الإلهام والتعليم والتلقى من الله تعالى ، وذلك أن الله ابتعثه فى العرب وكانوا أهل بلاغة وبيان ، تتعدد لهجاتهم بتعدد قبائلهم ، فكان من تمام البلاغة وكمال الحجة أن يخاطب كل قوم بلهجتهم وعلى مذهبهم ، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطاباً ، وأبينهم عبارة ، ومثل هذا لا يكون إلا عن تعليم وتلقين أو رواية عن أحياء العرب حتى يحصر لغاتهم ويقف على لهجاتهم ، ومعروف أنه صلى الله عليه وسلم لم يتهيأ له شىء من ذلك ، ولا أحد من قومه ، فليس إلا أن يكون ما خص به النبى صلى الله عليه وسلم من ذلك كان توفيقاً وإلهاماً من الله ويعد ذلك أهم العوامل وأقواها ويؤيده قوله سبحانه : « وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما »(٢) .

---

(١) المزهر ١/٢٢ ، ٣٣

(٢) سورة النساء : ١١٣

واعترافه ﷺ بذلك فى جوابه السابق لكل من أبى بكر وعلى رضى الله عنهما بقوله : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

وفقنا الله للانتفاع بالقرآن الكريم وكلام الرسول صلى الله عليه وسلم فى ديننا ودنيانا إنه سميع مجيب .

والحمد لله رب العالمين ؟

مؤلفات السياطى(*)

قل أن نجـــد مكتبة من المكتبات تخلو من كتب ومؤلفات للسيوطى(١) ينتفع بها الباحثون والدارسون لعلوم العربية والإسلام وقد تعددت مؤلفات السيوطى وتنوعت فبلغت على حد قوله أكثر من ثلاثمائة كتاب سوى ما غسله وتاب عنه ، وقد جاءت هذه المؤلفات فى كثير من المعرفة وهى : التفسير وتعلقاته ، والقراءات — والحديث وتعلقاته — والدعوات والأذكار — والفقه وتعلقاته — والأصول والتصوف — وعلوم العربية وتعلقاتها ، والتاريخ والأدب(٢) .

وقد ذكر السيوطى فى كتابه : « حسن المحاضرة » أسماء تلك المؤلفات وبينما اهتم عدد من الباحثين بحصر مؤلفات السيوطى ومعرفة العدد الحقيقى لها وأنهــا لا تقتصر على العدد السابق الذى ذكره السيوطى بل تزيد عن ذلك(٣) فإن بعضاً من الباحثين استكثر أن يتمكن واحد من الناس على تأليف

---

* نشر بمجلة « الخفجى » السعودية العدد الثالث — السنة الحادية عشرة شعبان ١٤٠١ هـ ، يونيو ١٩٨١ م

(١) فى سيوط خمس لغات : أسيوط بضم الهمزة وفتحها ، وسيوط بتثليث السين اقرأ ذلك فى كتاب السيوطى : «التحدث بنعمة الله» تحقيق: اليزابث مارى سارتين ص ١٢ المطبعة العربية الحديثة بمصر .

(٢) انظر : حسن الحاضرة : ١ : ٣٣٩ وما بعدها .

(٣) فقد عــــدله « بروكلمان » ٤١٥ مصنفا بين مطبوع ومخطوط ، و «فلوغل» ٥٦٠ مصنفا ، وجميل بك العظم : ٥٧٦ مصنفا بين كتب كثيرة ورسائل ومقامات ، وذكره ابن اياس فيمن توفى فى عصر الغورى ، =

هذا العدد الكثير والمتنوع من الكتب وحده ، ورأوا أن فى ذلك مبالغة ، وأن كثيراً من المؤلفات التى نسبها السيوطى لنفسه كانت لعدد من الشيوخ فى زمانه ، كما لا يستبعد أن يكون السيوطى قد سطا على بعض المكتبات وادعى أن ما فيها من كتب من تأليفه وتصنيفه(١) .

وقد دافع الفريق الذى لا يتشكك فى صحة نسبة هذا العدد من المؤلفات إلى السيوطى بأن عدداً من المؤلفين قبل السيوطى وبعده قد نسب إليه ما يقرب من هذا العدد من الكتب فليس هناك غرابه فى أن تكون تلك الكتب من تأليف السيوطى ، كما أن عدداً كثيراً من الكتب التى ذكرها كان فى حجم كراس أو يزيد ، ولا تعدو أن تكون مقالات يؤكد ذلك كتابه : « الحاوى للفتاوى » فى الفقه ، وعلوم التفسير والحديث ، والأصول ، والنحو ، وسائر الفنون ، وتضم الفتاوى التى أوردها السيوطى فى هذا الكتاب عدداً كبيراً من الكتب التى ذكرها فى كتابه : « حسن المحاضرة »(٢) .

ذلك بايجاز موقف المصدقين والمتشككين فى مؤلفات السيوطى وأنى إذ أقف مع الفريق المصدق أسوق من الأدلة على ذلك :

= وقال : بلغت مؤلفاته : ستمائة مؤلفاً مذكورة فى فهرس كتبه ، وقد طبع من هذه الكتب كثير أحصى له يوسف سركيس فى معجم المطبوعات العربية ٩٢ كتاباً لعهد تأليف معجمه (١٣٣٩ هـ — ١٩١٩ م) وقد طبع له بعد هذا التاريخ مؤلفات أخرى . أنظر : مقدمة : معترك الأقران فى أعجاز مقرآن للسيوطى تحقيق : على البجاوى ص : ٢

(١) المرجع السابق ص : ٢

(٢) أنظر : المرجع السابق ص : ى ، والإتقان فى علوم القرآن ١ : ٣ وما بعدها تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم .

١ — أن كثيراً من الأسماء التي ذكرها السيوطي لكتبه في كتابه : « حسن المحاضرة » لم تكن كما بدا من صياغتها عناوين لكتب ذات موضوعات متعددة ، بل أنها صيغت لتعبر عن موضوع محدد ، بمعنى أنها أقرب إلى أن تكون شبه مقالات ، ومما يؤكد ذلك أني عثرت في قسم المخطوطات بدار الكتب المصرية على نسخة واحدة في مجلد صغير الحجم للسيوطي تشتمل على عدة موضوعات في علوم مختلفة ، وقد جاء كل موضوع منها في أربع صفحات أو أكثر بقليل ، وقد نقلت من هذه الموضوعات موضوعا بعنوان « فتح الجليل للعبد الذليل »(١) ، يتحدث فيه السيوطي عن الفنون البديعية في قول الله تعالى : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »(٢) ، وقد وجدت الموضوع السابق مذكوراً من بين مؤلفات السيوطي في « حسن المحاضرة » فأكد لي ذلك أن كثيراً من مؤلفات السيوطي كانت على هذه الصورة ولا تزيد عن صفحات معدودة مما ينفي أي تشكك في صحة نسبة ما ذكره السيوطي من كتب إليه .

٢ — ومما جعلني أقتنع بصحة نسبة ما ذكره السيوطي من كتب إليه أيضاً أني وقفت على كتاب مطبوع له بعنوان : التحدث بنعمة الله »(٣) ، وقد أفرد هذا الكتاب للترجمة عن نفسه ، ومن الأمور التي تحدث عنها

---

(١) قمت بتحقيقه ، وأضفته إلى كتابي البديع ، ص : ١١٨ وما بعدها ط أولى ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م

(٢) البقرة : ٢٥٧

(٣) توجد نسخة منه بقسم التراجم بالمكتبة المركزية لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض .

فى هذا الكتاب : مؤلفاته ، وحديثه عن مؤلفاته فى هذا الكتاب يختلف أختلافاً كبيراً عن حديثه عنها فى كتابه : « حسن المحاضرة » الذى اعتمد عليه معظم من كتبوا عن السيوطى ، فقد جاء حديثه عن كتبه فى « حسن المحاضرة » غير محدد ، حيث كان مهتما بتعداد كتبه وذكر أسمائها ، ففهم الدارسون أن هذه الكتب الكثيرة متقاربة الأحجام على هيئة كتبه المطبوعة والتى وقع بعضها فى عدة أجزاء(١) ، فاندفعوا منكرين ومتشككين .

ولذلك أدعو هؤلاء لقراءة ما كتبه السيوطى عن مؤلفاته فى كتابه : « التحدث بنعمة الله » حيث يتغير موقفهم ، ولا يخالجهم أدنى شك فى مؤلفات السيوطى وصحة نسبتها إليه فماذا فعل السيوطى فى كتابه المذكور عند حديثه عن مؤلفاته ؟ لقد صنف تلك المؤلفات ، ووزعها إلى درجات من حيث الكم والكيف فذكر أن له كتباً لا نظير لها تستحق أن تسمى كتبا لما تضمنته من علم وما بذل فيها من جهد ، وأن هناك كتباً كثيرة لا يعتد بها لكونها لم تتم ، أو لكون عمله فيها لا يزيد على النقل والرواية — كما أن من كتبه التى ذكرها ما كان قد عزم على تأليفه ثم لم يمض فيه لأسباب حالت دون ذلك وأسوق إليك موجزاً لهذا التصنيف لكتب السيوطى بقلم السيوطى نفسه لتزداد معى اقتناعا بصحة نسبة مؤلفات السيوطى إليه .

لقد قسم السيوطى فى كتابه : « التحدث بنعمة الله »(٢) كتبه سبعة أقسام :

---

(١) مثل الإتقان فى علوم القرآن ، والمزهر ، وطبقات الحفاظ ، وبغية الوعاة : وغيرها .

(٢) اقرأ تفصيل ذلك فى كتابه « التحدث بنعمة الله » ص : ١٠٥ وما بعدها .

١ — قسم ادعى فيه التفرد ، وانه لا نظير له ، وعـــدد مؤلفاته ثمانية عشر مؤلفاً منها : الإتقان فى علوم القرآن ، وبغية الوعاة ، وغير ذلك .

٢ — وقسم ألف مايناظره ، وهو ما تم أو كتب منه قطعة صالحة من الكتب المعتبرة التى تبلغ مجلداً وفوقه ودونه ، وعدد مصنفات هذا القسم خمسون منها: تكملة تفسير الشيخ جلال الدين المحلى من أول البقرة إلى آخر الإسراء ، وطبقات الحفاظ ، وطبقات المفسرين ، وعقود الجمان ، وحسن المحاضرة وغيرها .

٣ — وقسم صغير الحجم من كراس إلى عشرة ، وكتبه تامة وعددها سبعون منها: التحبير فى علوم التفسير ، معترك الأقران فى مشترك القرآن(١) وغير ذلك .

٤ — وقسم وقع فى كراس ونحوه ، وعدده مائة مؤلف منها : مراصد المطالع فى تناسب المقاطع والمطالع، والجمع والتفريق بين الأنواع البديعية، وغير ذلك .

٥ — وقسم ألف فى واقعات الفتاوى من كراس وفوقه ودونه ، وعدده ثمانون مؤلفا منها : القول الفصيح فى تعيين الذبيح ، والمصابيح فى صلاة التراويح ، وغير ذلك .

---

(١) ذلك هو اسم الكتاب كما ورد فى « حسن المحاضرة » و « التحدث بنعمة الله » لكن محقق الكتاب أطلق عليه : « معترك الأقران فى أعجاز القرآن » ذاكراً أن ذلك هو اسم الكتاب فى المخطوطتين اللتين اعتمد عليهما فى تحقيقه أنظر ص : ف من معترك الأقران .

٦ — وقسم لايعتد السيوطي به ، لأن اعتناءه فيه كان بالرواية المحضة وقد ألف معظم كتب هذا القسم في زمن السماع والدراسة ومن كتبه : المعجم الكبير لشيوخه ، المنتقى من تفسير ابن أبي حاتم ، المنتقى من تفسير الفريابي ، المنتقى من تفسير البيهقي ، وغيرها .

٧ — وقسم كان قد شرع فيه ولم يكتب منه إلا القليل ومنـــه مجمع البحرين ومطلع البدرين في التفسير ، نكت على تلخيص المفتاح ، طبقات الأصوليين ، وغيرها .

وهكذا بالتأمل في هذا الموجز لمصنفات السيوطي نتبين أن كثيراً من من أسماء كتبه التي أوردها في «حسن المحاضرة» على هيئة مقالات في صفحات معدودة ، وعدداً منها على هيئة فتاوى ، وعدداً ألفه في مرحلة الدراسة ولا يعتد به ، وعدداً لم يتمه ، وبطرح هذه الأعداد من جملة الكتب التي تحدث عن تأليفها وعددها : ثلاثمائة أو أكثر لايتبقى إلا قدر محدود من الكتب القيمة التي تستحق أن تسمى كتبا والتي لا يستغرب أن تكون لمؤلف واحد فضلا عن السيوطي الذي أمده الله بنعم في العقل والفكر والتحصيل وغير ذلك لأن يقوم بما قام به وأكثر منه ، وما ظنك بمن يحفظ القرآن وعدداً من أمهات كتب الإسلام والعربية وهو ابن ثماني سنوات، ويؤلف وهو ابن ست عشرة سنة(١) اهـ .

---

(١) لقد توفي رحمة الله ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى سنة ٩١١ هـ عن أحدى وستين سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوماً ، أمضى معظمها في خدمة القرآن وعلومه .

الدرس البلاغى فى تجربة جديدة

— ١ —

تمهيد : —

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بلغة الضاد المؤيد بالقرآن الكريم محمد ابن عبد الله النبي العربى الأمين صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وأتباعه .

وبعد : —

فللدراسات اللغوية والأدبية بكل فروعها هدف عام ينبغى أن يتم تحققه . لكل من ينتسب إلى حقل اللغة والأدب مدرساً أو دارساً وهو صقل الألسنة على النطق العربى السليم والفصيح. وإزالة العقبات التى تحول دون الإفادة من التراث العربى والإسلامى الإفادة المرجوة التى توصل فى الأجيال الصاعدة عروبتها وتوثقها بأصول دينها فلا تزيدها العواصف الهوج إلا ثباتا وتمسكا ، ولا التيارات الجارفة إلا صمودا ورسوخا . وذلك بعد الهدف العام والهام الذى يدفعنا إلى التوسع فى معاهد اللغة وكلياتها ودعمها بكل مايضمن له التحقق ، إذ أنه من الأمور البدهية أننا لانعنى باللغة لنحفظها من الضياع والتبدد كما يحدث لكثير من الذين يعنون

(•) بحث منشور بحولية كلية اللغة العربية بالرياض العدد التاسع ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

بلغاتهم ومع عظيم اهتمامهم فلم يضمنوا لها حفظا حيث كفانا القرآن هذه المهمة الشاقة التى لم تتأت للغة من اللغات ، فهو كتاب الله الخالد الذى أنزله الله على رسوله الكريم بلسان عربى مبين ليبقى أبد الدهر كما نزل ، تتغير الدنيا ولا يتغير ، وتتبدل النظم والقوانين ولا يتبدل ، لم تنقص فيه آية ، ولم تحذف منه عبارة ، ولم تزد عليه جملة ولم تنقل فيه كلمة من موطنها ، فضمن بذلك للغتنا البقاء إلى الأبد ، وصدق الله حيث يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »(١)

وإذا كان ذلك هدفا عاما ينبغى تحققه لكل من يرد حقل اللغة ، فإن ثمة هدفا آخر ينبغى تحققه أيضاً وإن كان أخص من الهدف السابق وهو يتعلق بكل فرع من أفرع الدراسات اللغوية والأدبية على حدة ، فلكل منها هدف معين يحاول الوصول إليه من خلال موضوعات المادة ودروسها ، وإذا كان كلا الهدفين مرتبطاً بالآخر فإن أى درس فى أى فرع للغة وأدبها ينبغى ألا يخلو من إدراك أحد الهدفين السابقين بل إدراكهما معا وإلا كان غير واف حيث لم يصب الهدف ولم يحقق الغرض .

وكل من تمرس بمطالعة التراث البلاغى متقدمه ومتأخره لايشق عليه تحديد الأهداف الخاصة التى ينبغى أن يدور حولها الدرس البلاغى ، وتتمثل تلك الأهداف بصفة اجمالية فى : الوقوف على أسرار البلاغة القرآنية ونواحى إعجازها ، والتعرف على وجوه البلاغة وأمارات الفصاحة فى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإدراك ما بين بلاغة القرآن وبلاغة الرسول وبلاغة الفصحاء من الناس من وجوه التشابه والتباين .

---

(١) سورة الحجر : الآية : ٩

ومن هذه الأهداف أيضا تنمية حاسة التذوق وتربية ملكة النقد بالتعرف على وجوه الحسن فى الأساليب، والموازنة بين جيد الكلام ورديئه، وإلقاء الكلام وحبك العبارات وصوغ الأساليب على الوجوه المناسبة لمقتضيات الأحوال، والملائمة لمستلزمات المواقف والمقامات ولعل من أوضح مقدمات كتب البلاغة: تحديدا لأهدافها وتصويرا لأغراضها، ما ذكره أبو هلال العسكرى فى مقدمة كتابه الصناعتين قائلا: «اعلم علمك الله الخير ودلك عليه وقيضه لك وجعلك من أهله أن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذى به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق الهادى إلى سبيل الرشد المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة التى رفعت أعلام الحق وأقامت منار الدين وأزالت شبه الكفر ببراهينها، وهتكت حجب الشك بيقينها. فينبغى من هذه الجهة أن يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله تعالى ومعرفة عدله والتصديق بوعده ووعيده إذ كانت المعرفه بصحة النبوة تتلو المعرفة بالله جل اسمه.

ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ومناقب معروفة، منها أن صاحب العربية إذا أخل بطلبه وفرط فى التماسه فاتته فضيلته وعلقت به رذيلة فوته عفى على جميع محاسنه وعمى سائر فضائله، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر ردىء ولفظ حسن وآخر قبيح وشعر نادر وآخر بارد بان جهله وظهر نقصه، وهو أيضاً إذا أراد أن يصنع قصيدة أو ينشىء رسالة وقد فاته هـــذا العلم مزج الصفو بالكدر وخلط الغرر بالعرر واستعمل الوحشى العكر، فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل[1]»

---

(١) أبو هلال العسكرى: الصناعتين ص: ٣٢ — ٣٥ تحقيق: على البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم

الأسرار البلاغية بين منهج السكاكى والمناهج المعاصرة

فى ضوء الأهداف السابقة التى ينبغى أن يحققها الدرس البلاغى الناجح والمفيد، وأن يبلغها كل من المعلم والطالب من خلال منهج يعين على ذلك يمكننا أن نقرر بصدق وإخلاص أن كثيراً من المناهج المستخدمة الآن فى درس البلاغة لا تحقق الأهداف السالفة.

فبينما يستقل بعضها بالدراسة الوصفية والتاريخية لموضوعات البلاغة وأعلامها منذ أن بدأ التأليف فى البلاغة حتى العصر الحاضر، فإن بعضها الآخر يمضى بالدرس البلاغى لغير الهدف الذى يقصد منه، وذلك بإغراقه بالأبحاث النفسية ودروس علم الأخلاق والجمال أو بتحويله إلى بحوث فى مفردات اللغة وصيغها، وإن يكن هذا أو ذاك آلة من آلات البلاغى، وعدة من عدده الكثيرة التى ينبغى أن يزود نفسه بها قبل أن يخوض فى ميدان البحث البلاغى إلا أن كلا منها ينبغى أن يستعمل بمعيار دقيق، وأن يستعان به بحساب شديد وبالوجه الذى يجعل لدرس البلاغة كيانه ويضمن له تميزه عن غيره من الدروس، وثمت منهج ثالث يتحول فيه درس البلاغة إلى درس فى الأدب شعره ونثره حسبا أنه المنهج الذى ينمى الأذواق ويربى الملكات، وفضلا، وفضلا عن كونه لا يحقق الهدف الأول والهام لدرس البلاغة أى فيما يتعلق بتذوق الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم فإنه من ناحية أخرى يفقد البلاغة تميزها واستقلالها ويمزجها بأبحاث الأدب ودروس النقد(١).

---

(١) اقرأ تفصيل ذلك فى كتابنا : المدخل إلى دراسة البلاغة : توزيع مكتبة النهضة المصرية — القاهرة من ص : ١ — ٢٨

وغير هذه المناهج السالفة التي كان لها روادها والدعون إليها من أنصار التجديد ودعاة التطوير للدرس البلاغي ، فإن هناك المنهج السكاكي الذي دار الدرس البلاغي في فلكه أزمانا طويلة وما يزال يدور في فلكه حتى الآن ، حيث يكاد أن يكون المنهج المستخدم في كثير من معاهد العربية وكلياتها على الرغم مما وجه إليه من انتقادات تدور غالبيتها حول : قصوره عن بلوغ الأهداف المرجوة من الدرس البلاغي لوضوح روح الجدل فيه ، وغلبة النزعة المنطقية والفلسفية عليه ، وإغراقه بالاعتراضات والمجادلات حول تحديد المصطلحات وما بينها من اتفاق واختلاف إلى الحد الذي جعلها هدفا ، وإقلاله من الجوانب التطبيقية ، وكان المفروض أن يحدث العكس ، فيكثر عرض النصوص الجيدة ويعنى ببيان ما تحوى من أسرار بلاغية ، ولا يوقف عند المصطلحات والألقاب إلا بالقدر الذي يجلى ذلك الهدف ويوضحه .

وفي مجالات العمل على تطوير الدرس البلاغي وتجديده وبلوغه الأهداف المقصودة منه فإننا نتقدم بعلاج نحسبه باذن الله مفيـــدا لداء أصاب البلاغة العربية في طورها المتأخر الذي غشاه الجمود وكساه العقم .

وقد رآه معظم المهتمين بالدراسات البلاغية معوقا لنموها وصادا لها عن بلوغ أهدافها وهو : ظاهرة المصطلحات البلاغية .

فلنتحدث عن : المصطلحات البلاغية — حديثا مجملا يوضح ما كان من حيلولتها دون بلوغ الدرس البلاغي أهدافه ، ثم ننتقل بعد ذلك لوصف العلاج الذي نرى فيه البرء ونعتقد به الشفاء .

المصطلحات البلاغية :

ذكرنا أن بلاغة السكاكى التى تتخذ منهجا فى كثير من معاهد العربية وكلياتها لا تحقق الأهداف المنشودة لدرس البلاغة ، وكان من أول أسباب ذلك : اهتمامها بتحديد المصطلحات والألقاب وما بينها من تشابه أو تباعد وإهمالها للنصوص تحليلا وتوضيحا بمعنى أن ما هو ثانوى صار أوليا وما يعد وسيلة أضحى هدفاً وغاية ، وبدأ ذلك مع أول دروس البلاغة فى تحديد الفرق بين البلاغة والفصاحة واستمر فى معظم دروسها التى تهتم اهتماما واضحا بتحديد الفروق بين المصطلحات والألقاب كبيان الفرق بين الحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة والكناية والتعريض والطباق والمقابله وغير ذلك .

ولعل أهم الموضوعات التى تصور غلبه جو المصطلحات على البلاغة موضوع البديع وما بين فنونه من تداخل وتكرار وتضارب وتشعب الآراء واختلافها حول تحديد مفهومه ، ومن المعروف أن عبدالله بن المعتز كان أول من استعمل البديع بمعنى البلاغه ، وذكر من أنواعه ثمانية عشر نوعا ، منها ما ذكر بعد ضمن مباحث البيان كالتشبيه والكناية والتعريض ، وما ذكر ضمن موضوعات علم المعانى كالالتفات والاعتراض(١) .

وكذلك صنع أبو هلال العسكرى فقد استعمل البديع بمعنى البلاغة وجعله عنوانا على أنواعها التى جمعها فى خمسة وثلاثين نوعا ، وهو الذى صنعه « عبد القاهر » حيث أراد بالبديع ما يرادف البلاغة والبيان والبراعة

---

(١) د. بدوى طبانه — البيان العربى ط سادسه ص ١٣١ — ١٣٥

وما شاكلها ولم يحصره فى أنواع محددة ، كما لم يفرق بينه وبين غيره من فنون البلاغة كما فعل البلاغيون المتأخرون ، كما أن الزمخشرى كذلك لم يحصر البديع فى عدد معين من الفنون ، فكان أحيانا يسمى وجوه البلاغة بالبيان ، وأحيانا يسميها بالبديع ، كقوله فى التعليق على قول الله تعالى « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » إنه من الصنعة البديعية(١) .

وحتى ذلك الطور لم يبد البديع علما مستقلا عن فنون البلاغة ، ولم تسيطر المصطلحات والألقاب وتحديد ما بينها من تقارب أو تباين على جو البلاغة ، وإن ظهر ذلك بين الحين والآخر فإن ظهوره كان على نطاق ضيق وفى إطار محدود ، وبالقدر الذى لا يجور على روح البلاغة وهدفها .

ونأتى إلى صاحب مفتاح العلوم « أبو يعقوب السكاكى » فنرى التقسيم والتحديد والاهتمام بالألقاب والمصطلحات يبلغ مداه حيث يجعل البلاغة علمين هما : المعانى والبيان ، ويجعل المحسنات البديعية تابعة لهما حيث يصار إليها لقصد تحسين الكلام وتزيينه(٢) ، ثم يكمل بدر الدين بن مالك(٣) ما بدأه السكاكى فيجعل البديع علما مستقلا ويوافقه الخطيب القزوينى فى ذلك .

وإذا كان « ابن الاصبع المصرى » المتوفى سنة ٦٥٤ هـ قد وصل بوجوه البديع إلى أكثر من المائة وأراد بها وجوه البلاغة ، التى استخرجها من القرآن الكريم فى كتابيه : « تحرير التحبير » و « بديع القرآن » ، إذ ذكر

---

(١) أحمد مصطفى المراغى : علوم البلاغة والتعريف برجالها أولى ص : ١١٥

(٢) وقد بلغت أنواعها عنده سبعة وعشرين نوعا

(٣) المتوفى سنة ٦٨٦ هـ ، وهو صاحب كتاب « المصباح » .

فى الأول مائة وخمسة وعشرين فنا وذكر فى الثانى مائة وتسعة فنون فإن كثيرين ممن جاءوا بعده استمروا يجمعون فنون البديع على طريقة السكاكى أى فى كون البديع محسنا عرضيا يؤتى به لتحسين الكلام وتزيينه وأربى ما جمعوه على مائة وخمسين نوعا على نحو ما صنع أصحاب البديعيات الذين كان جل اهتمامهم ذكر اللون البديعى ثم الاستشهاد عليه ببيت من الشعر كما فعل صفى الدين الحلى المتوفى سنة ٧٥٠ هـ فى قصيدته التى أنشدها فى مدح الرسول ﷺ واستهلها بقوله :

إن جئت سلعا فسل عن جيرة العلم
واقــــر السلام على عرب بذى سلم(١)

وقد امتدت إلى مائة وخمسة وأربعين بيتاً من بحر البسيط ، وضمن كل بيت منها محسناً من محسنات البديع بحيث بلغ ما تضمنته مائة وخمسين محسناً(٢) .

وبالتأمل فيما كتبه أول من جعل البديع عنوانا على وجوه البلاغة وهو : عبدالله بن المعتز ، وأول من جعله محسنا يصار إليه لقصد تحسين الكلام وتزيينه ويؤتى به بعد مطابقة الكلام لمقتضى الحال ووضوح الدلاله على المعنى المراد أى بعد علمى المعانى والبيان وهو : أبو يعقوب السكاكى يتبين لنا أن كلا منهما لم ير فيما ذكره من وجوه البديع منتهى لا يتجاوز ، بل إنهما أعلنا أن الأبواب مفتوحة لكل من يبتكر جديداً ، أو يعثر بالاستنباط والتأمل على ما يكون حديثاً وفريداً فابن المعتز يقول

---

(١) سلع : جبل فى المدينة — العلم : الجبل — ذو سلم : جبل شرق المدينة
(٢) د . شوقى ضيف : البلاغة تطور وتاريخ ط دار المعارف ١٩٦٥ ص : ٣٦٠
(٣) عبدالله بن المعتز : البديع ص ٥٨ تعليق : اغناطيوس كراتشوفسكى

فى مقدمة بديعه : « فمن أحب أن يقتدى بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئاً إلى البديع أو لم يأب غير رأينا فله اختياره »(١) .

والسكاكى الذى عد من المحسنات البديعية سبعة وعشرين فنا كما سبق ، أنهى الكلام عنها بمثل كلام ابن المعتز السابق حيث قال : «ولك أن تستخرج من هذا القبيل ما شئت وتلقب كلا من ذلك بما أحببت »(٢) .

ولا يقف المرء عندما يدعو إليه ابن المعتز والسكاكى من إعمال الفكر وإطالة التدبر أملا فى العثور على ألوان جديدة لم يتمكنا من الوقوف عليها ، فإن من يطيل النظر والتأمل ويدير النصوص على كل الوجوه المحتملة يظهر له ما يعد جديداً ، وذلك أمر واضح يدركه كل من يعكف على تناول النصوص بالدراسة الذاتية التى لا يردد فيها ما ذكره السابقون ، ويبدو ذلك أكثر وضوحاً فى تفهم النصوص القرآنية ، وإنه ليمثل السر الحقيق فى نظرى لتعدد التفاسير وتنوعها على مر العصور بما لم يحدث لكتاب آخر من الكتب السماوية .

ومن ذلك نتبين أن الوقوف فى دراسة ألوان البلاغة وفنونها فى المعانى والبديع عندما انتهى إليه السكاكى ، واستمرار الدرس البلاغى عليه حتى الآن حجر على العقول والأفهام ومنع لها من الابتكار والتوليد فضلا عن تناقضه مع فطرة الله التى خلق الناس عليها . فنرى أن مصطلح « البديع » يشغل دارس البلاغة ومدرسها من ناحية تحديد نشأته ، والأطوار التى مر بها منذ بدأ التأليف فى البلاغة ، ومن جهة فنونه وما لحقها من حذف

---

(١) عبدالله بن المعتز : البديع ص ٥٨ تعليق اغناطيوس كراتشوفسكى
(٢) أبو يعقوب السكاكى : مفتاح العلوم ص ٢٢٩

أو إضافة على مر التاريخ، ومن ناحية أثره البلاغي وقيمته بالنسبة للأساليب أهو محسن ذاتي لا يستغني الكلام عنه، ولا يتم الإقناع ويكمل الإمتاع إلا به أم أنه عرضي يؤتى به قصداً للتحسين والتزيين بعد أن يستوفي الكلام حظه من فنون المعاني والبيان كما ذكر بدر الدين بن مالك وأبو يعقوب السكاكي والخطيب القزويني ومن سار في مضمارهم ؟(١) .

ومن غير شك فإن التعمق في دراسة مثل ذلك إنما يكون على حساب الأهداف الأصيلة التي كانت من أجلها الدراسات البلاغية .

وثمة ناحية أخرى تتعلق بفنون البديع، وتتصل اتصالا واضحاً بموضوع المصطلحات وما كان من تعطيله الدرس البلاغي عن بلوغ أهدافه وهي : تعدد فنون البديع وعدم ضبطها بعدد معين واختلافها كثرة وقلة من عصر لعصر بل من عالم لآخر كما سبق لك، إذ بدأت كما ذكرنا عند ابن المعتز بثمانية عشر محسنا، وأخذ يضاف إليها حتى بلغت أكثر من مائة وخمسين لونا في عصر البديعيات، حيث لم يتوفر في كل هذه الألوان عامل الأصالة والاستقلال كما ذكر ضياء الدين بن الأثير من أن أرباب هذه الصناعة قد اختلفوا في تسمية أنواع علم البيان حتى إن أحدهم يضع لنوع واحد اسمين اعتقاداً منه أن ذلك النوع نوعان مختلفان، وليس الأمر كما وقع له بل هما نوع واحد(٢) .

---

(١) من أهم المؤلفات المعاصرة التي عنيت بدراسة البديع من هـــذا الجانب : علوم البلاغة والتعريف برجالها للمرحوم الأستاذ : أحمد مصطفى المراغي، والصبغ البديعي في اللغة العربيه للأستاذ الدكتور أحمد موسى، والصور البديعية بين النظرية والتطبيق للمرحوم الدكتور حفني شرف .

(٢) ضياء الدين بن الأثـــير : الجامع الكبير ص ٢٤٠ ، ٢٤١ تحقيق د . مصطفى جواد و د جميل سعيد — العراق ١٣٧٥ هـ

فإن المتتبع لفنون البديع على امتداد التأليف فى البلاغة يلاحظ تداخلا فى كثير منها وأن عدداً منها يؤدى سراً إبلاغياً واحداً فى الوقت الذى جعل كل منها فنا برأسه ونوعاً مستقلا ، كما إن عدداً منها ذكر له أكثر من اسم ، وإن يكن فى ذلك تشتيت للذهن فإن فيه أيضاً بلبلة للفكر وإرهاقا له فى التوفيق بين الفنون وأسمائها وفى التفرقة بينها من ذلك تسميتهم التجنيس : الجناس والمجانس والاشتقاق ، وتسميتهم التورية : الإيهام والتوجيه والتخيير وتسمية التشبيه المقلوب : غلبة الفروع على الأصول أو الطرد والعكس ، وتسمية التوجيه : محتمل الضدين ، وتسمية الإرصاد : التسهيم والتوشيح ، وتسمية لزوم ما لا يلزم : الإلزام والتضمين والتشديد والإعنات والتضييق ، وتسمية التشريع : التوشيح وذا القافيتين ، وتسمية التكميل : الاحتراس ، وتسمية رد العجز على الصدر : التصدير ، وتسمية المطابقة : الطباق والتضاد والتطبيق والتكافؤ ، وتسمية التشريع : التوأم والتوشيح ، وتسمية تجاهل العارف : سوق المعلوم مساق غيره ، وتسمية مراعاة النظير : التناسب والتوفيق والائتلاف والتلفيق(١) .

---

(١) د . أحمد مطلوب : مناهج بلاغية ط أولى ص: ٤١٢ — ٤١٦ — وفى هذا النص لحازم القرطاجنى ما يوضح الذى ذكرناه ، إذ يذكر أكثر من فن بلاغى كالإلتفات والتشبيه والإستدراج والاستطراد أثناء كلامه عن فن التفريع الذى يقول عنه : « هو أن يصف الشاعر شيئاً بوصف ما ، ثم يلتفت إلى شيء آخر يوصف بصفة مماثلة أو مشابهة أو مخالفة لما وصف به الأول ، فيتدرج من أحدهما إلى الآخر ، ويستطرد به إليه على جهة تشبيه أو مفاضلة أو إلتفات أو غير ذلك مما يناسب به بين بعض المعانى وبعض ، فيكون ذكر الثانى كالفرع عن ذكر الأول ، ومن ذلك قول الكميت :

أحلامكم لسقام الجهل شافية كما دماؤكم يشفى بها الكلب =

ولعل كثيراً من المهتمين بالدراسات البلاغية والنقدية يدركون مدى ما يعانيه الباحث وهو يتتبع هذه الفنون من متاعب فى تحديد بدايات تسميتها ، وما بينها من وجوه التشابه والتباين ، وهذا كما سبق أن ذكرنا بجهود يبـــذل فى غير موضعه ، إذ كان الأولى والأليق أن تدخر تلك الجهود لتحليل النصوص منثورها ومنظومها تحليلا بلاغيا ونقديا يشير إلى وجوه الحسن لتحتذى وينبه إلى مواطن الضعف لتجتنب ، وذلك هو الدرس البلاغى الهادف والناجح ، والذى كانت عليه البلاغة فى أوج ازدهارها قبل أن يطغى عليها طوفان المصطلحات .

والدرس البلاغى المعاصر ينبغى أن يتخفف من ثقل المصطلحات وتزاحمها ، وأن ترفع العقبات من طريقه ليبلغ أهدافه ويحقق أغراضه ، ولما كنت أرى أن دراسة البديع على أنه ذاتى وأصيل وليس عرضيا ولا طارئا أمر تقرره قاعدة البلاغة ويحتمه ميزانها الأقوم وهو : المطابقة لمقتضى الحال بمعنى أن كل ما تقتضيه الأحوال وتدعو إليه المواقف من الأساليب والعبارات فإنه من صميم البلاغة وما كان على غير ذلك فإنه حشو وزيادة[1] ، فإنى أضيف إليه أن مما يبلغ بالدرس البلاغى أهدافه ألا يقف فى المحسنات البديعية عندما انتهى السكاكى ، إذ أنه يناقض الفطرة ويتنافى مع ما ذكره السكاكى نفسه كما سبق أن بينا .

ولعل ما ذكرته عن ظاهره المصطلحات كداء أصاب البلاغة وعاقها عن بلوغ أهدافها كاف فى ذلك . فلنتبع ذلك بوصف الدواء المناسب ، وهو من واقع التجارب مع درس البلاغة يتمثل فى جمع الفنون المتشابهة

= فلا ندرى أهو يتحدث عن فن واحد أم عدد من الفنون ؟ حازم القرطاجنى : منهاج البلغاء ص ٥٩ ، ٦٠ تحقيق : الحبيب بن الخوجة .

(١) فتحى فريد : البديع — دار الطباعة المحمدية القاهرة ١٩٧٧ م .

والتى يضمها سر بلاغى واحد تحت هذا السر ، وإذا كان فى ذلك تقليل للأقسام وحسم للتداخل والتكرار والتضارب فإن فيه أيضا منعا لتشتت الذهن وإرهاق الفكر واضطراب العقل ، وقد لقبت هذه الطريقة بـ :

الطريقة الموضوعية فى تدريس البلاغة :

وتتحقق بدراسة الفنون التى يجمعها سر بلاغى واحد تحت السر ، وقد لقبتها بالطريقة الموضوعية فى تدريس البلاغة على غرار مايعرف بالتفسير الموضوعى الذى يقوم على جمع الآيات التى تتعلق بقضية معينة ، ودراسة كل ما يتعلق بالقضية من خلال معرفة ظروف الآيات وملابساتها ومن حسنات هذه الطريقة أنها تعين على حصر فنون البلاغة وتذكر مسائلها ، وتقضى على اضطراب الفكر ، وتشتت الذهن ، كما أنها تحافظ على كيان الفنون واستقلالها ، ولا غرو فإنها تعد الطريقة التى سلكها شيخ البلاغة « عبد القاهر » ، واستخدمها فى معظم أبحاثه ، من ذلك حديثه عن : النظم يتحد فى الوضع ويدق فيه الصنع — فقد تكلم عن المزاوجة ، والعكس والتبديل ، والتمثيل ، والتشبيه المركب ، والاستعارة والتقسيم(١) .

كما استخدم تلك الطريقة فى دروس : التقديم والتأخير ، والحذف والذكر ، والفصل والوصل ، والقصر ، وقد تناول المتأخرون كما نعرف هذه الدروس بصورة غير موضوعية كما فعل عبد القاهر ، بل تكرر كلامهم عنها فى غير موطن — عند سرد أحوال المسند إليه ، وأحوال المسند ، وفى متعلقات الفعل .

وواضح أن تناول قضايا البلاغة ودراسة فنونها على هذا النهج

---

(١) عبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز ص : ٧٢ ، ٧٣ تحقيق أحمد مصطفى المراغى ط ثانية .

الموضوعى الذى طبقه عبد القاهر يفيد ويريح كلا من المعلم والطالب ، ويبلغ بالدرس البلاغى أهدافه ، كما يعد من أهم الأمور التى ينبغى الاعتناء بتطبيقها فى مجال تطوير الدرس البلاغى وتجديده ، على أن يشمل التطبيق كل فنون البلاغة فى جميع أبوابها ، وعلى سبيل المثال لا الحصر تدرس كل الأساليب العربية التى تجىء على خلاف ظاهر الحال فى سياق واحد ، وبالنسبة للبيان يدرس الأثر البلاغى والسر الجمالى لجميع فنونه فى سياق واحد ، حيث تلتقى فنون البيان حول أسرار بلاغية واحدة هى : المبالغة والبيان والإيجاز مع اختلاف تلك الآثار باختلاف الأساليب وتباين المقامات .

وفى البديع تجمع الفنون التى تلتقى على سر بلاغى واحد ويتم التنسيق بينها مع الاجتهاد فى ربط الأساليب المعروضة بالأحوال التى ذكرت فيها فيدرس الجناس والسجع والتصريع ولزوم ما لا يلزم تحت عنوان : التخالف أو التضاد ، والجمع والتفريق والتقسيم والجمع مع التفريق والجمع مع التقسيم واللف والنشر والتورية والاستخدام والمشاكلة وتأكيد المدح بما يشبه الذم وتأكيد الذم بما يشبه المدح وتخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر وغيرها تحت عنوان : الإيهام أو الخداع — إلى غير ذلك من فنون البلاغة التى يمكن ببذل الجهد وإمعان النظر جمع المتشابه منها على سر جمالى واحد مع التقديم لذلك السر بما يوضح حسنه ويبرز سر جماله .

ويتصل بهذه الطريقة تناول النص بالدراسة البلاغية والنقدية مرة واحدة لا يدع وجها من وجوه الحسن إلا أشادت به ولا مظهراً من مظاهر التقصير إلا نبهت إليه وحذرت منه ، وإذا كان لذلك أثره الواضح فى تجلية النص واستكناه أسراره والنفاذ إلى أغواره فإنه من جهة ثانية يعد علاجا لما تعانيه البلاغة من تمزق وتشتت ، حيث يتردد

الشاهد الواحد مرات متعددة فى فنون البلاغة المختلفة ، بل قد يذكر الشاهد أكثر من مرة فى الفن البلاغى الواحد(١) .

ولعل ما ذكره « عبد القاهر » عن أسرار الإعجاز البلاغى فى قول الله سبحانه : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين » والذى ردده معظم البلاغيين من بعده من أوضح الشواهد على صدق ما نقول(٢) .

فإنه فى تحليله يقنعك بما يقرره من سمو النظم القرآنى وما بين عباراته من تناسق ، وجمله من تآلف وكلماته من ربط وإحكام ، وقد استعان فى تحليله وتفسيره بالمصطلحات البلاغية واللغوية ، غير أنها كانت الاستعانة التى جعلت المصطلح فى خدمة النص ولم تكن كصنع المتأخرين الذين أولوا المصطلحات الاهتمام الأول فأضحت غاية وهى وسيلة .

وكى لا يبدو كلامنا نظريا فى عمومه ، فإنا نتبعه بتجربه عملية يتحقق فيها أثر ما ذكرناه ، نحاول فيها التخفف من ثقل المصطلحات فى تزاحمها

---

(١) د . فتحى فريد : المدخل إلى دراسة البلاغة توزيع مكتبة النهضة المصرية ط أولى ص ٣٣ — ٢٧ .

(٢) عبد القاهر : دلائل الإعجاز ص ٤١ ، ٤٢ ، وقد صور الزمخشرى إنبهار علماء البلاغة بما تضمنته الآية من روائع الأسرار البلاغية بقوله : « ولما ذكرنا من المعانى والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤوسهم لا لتجانس الكلمتين وهما قوله : (ابلعى) و (اقلعى) وذلك وإن كان لا يخلى الكلام من حسن فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التى هى اللب وما عداها قشور » الزمخشرى الكشاف ٢٩٨/٢ دار الكتاب العربى بيروت .

وتكررها وتداخلها ،مستخدمين لها الاستخدام الذي يضمن للدرس البلاغي بلوغ اهدافه، وذلك كما ذكرنا بدراسة الفنون البلاغية التي يضمها مسر بلاغي واحد تحته .

الإيهام :

من الامور التي لا تحتاج إلى توضيح أن كلام البليغ خطيباً كان أو شاعراً أو كاتبا يختلف صورة وتأثيراً عن كلام غيره ممن حرموا نعمة البلاغة، فليس الخبر الذي يزجيه المتكلم البليغ كالخبر الذي يزجيه غيره ، ولا التهنئة التي يقدمها المنشيء البليغ كالتي يقدمها غيره ، ولا الموعظة التي يدلي بها الخطيب البليغ كالتي يقدمها غيره ولا الدرس الذي يؤديه المحاضر البليغ كالذي يؤديه غيره ، ومن أوضح السمات التي يتميز بها كلام البليغ عن كلام غيره ما يشتمل عليه من : إيهام إذا اقتضى المقام ذلك الإيهام ،إذ يوهمك أنه يذم حيث يمدح ويمدح حيث يذم ليكون أبلغ تأثيراً في مدحه أو ذمه، بل يوهمك أن الصدق خيال ، والخيال صدق ، وعموما فإنه يجيء بكلامه دائما من طريق غير مكشوف وسبيل غير مألوف ، سالكا سبلا متشعبة وطرقا خفية لا يوقف على معالمها إلا بتأمل ولا يهتدي إلى دروبها الا بتدبر ليكون أقوى تأثيراً ، وإذا كان مثل هذا التصرف وذلك التفنن يلمح في كلام كثير ممن رزقهم الله قدرا من الذكاء فإنه يعد كما قلنا سمة من سمات البلاغيين واقرأ ما يقوله حازم القرطاجني حول ذلك:« وإنما يصير القول الكاذب مقنعا وموهما انه حق بتمويهات واستدراجات ترجع إلى القول أو المقول له ، وتلك التمويهات والاستدراجات قد توجد في كثير من الناس بالطبع والحنكة الحاصلة باعتياد المخاطبات التي يحتاج فيها إلى تقوية الظنون في شيء ما أنه على غير ما هو عليه بكثرة سماع المخاطبات في ذلك والتدريب في احتذائها »(١) .

---

(١) حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص : ٦٣ تحقيق : د. محمد الحبيب بن الخوجة تونس ١٩٦٦ م

ونعرض فيما يلي لبعض فنون البلاغة في أبواب البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع لنتبين أن « الايهام » يمثل جانبا واضحا من حسنها فمن موضوعات علم المعاني التي يلاحظ الايهام فيها ، ويشكل قدرا من بلاغتها .

حذف المسند إليه :

فالإيهام أحد الأغراض التي ذكرها البلاغيون لحذف المسند إليه وترجيح الحذف له على الذكر ، وذلك لإيهام أن في حذفه تطهيراً له عن اللسان لعظمة قدره وسمو منزلته كقولك : خاتم الانبياء — أي محمد ﷺ ، أو تطهيراً وصونا للسان عنه لدناءة قدره وانخفاض منزلته كقول بعض العرب في ابن عم له موسر سأله فمنعه ، وقال: كم أعطيك مالي وأنت تنفقه فيما لا يعنيك، والله لا أعطيتك فتركه حتى اجتمع القوم في ناديهم وهو فيهم : فشكاه إلى القوم وذمه فوثب إليه ابن عمه فلطمه ، فأنشأ يقول :

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه
وليس إلى داعي الندى بسريع
حريص على الدنيا مضيع لدينه
وليس لما في بيته بمضيع(١)

أي هو حريص ، ونتبين ما أحدثه حذف المسند إليه للسبب السابق من بهاء وروعة ، وما كان ذلك ليحدث مع ذكره ولهذا يقول « عبد القاهر »

---

(١) الشاهد في قوله : سريع إلى ابن العم .. أي هو سريع ، فقد حذف المسند إليه لإيهام صون اللسان عن المحذوف مع الاختصار والاحتراز عن العبث ، وفي البيت أيضاً : رد العجز على الصدر. عبد الرحيم العباسي معاهد التنصيص ٣ / ٢٤٢

مصوراً روعة ذلك الحذف : « فتأمل الآن هذه الأبيات كلها واستقرها واحدا واحدا وانظر إلى موقعها فى نفسك والى ما تجده من اللطف والظرف إذا أنت مررت بموضع الحذف منها ثم قلبت النفس عما تجد وألطفت النظر فيما تحس به ثم تكلف أن ترد ما حذف الشاعر وان تخرجه إلى لفظك وتوقعه فى سمعك فإنك تعلم أن الذى قلت كما قلت وأن رب حذف هو قلادة الجيد ، وقاعدة التجويد[1].

حذف المفعول به :

كما يجعل البلاغيون من أغراض حذف مفعول الفعل المتعدى : دفع توهم السامع إرادة غير المراد أول الأمر[2] ، كقول البحترى يمدح أبا الصقر الشيبانى :

وكم ذدت عنى من تحامل حادث
وسورة أيام حززن إلى العظم[3]

فقد حذف مفعول — حززن — وهو اللحم — لدفع توهم غير المراد إذ لو قال : حززن اللحم — لجاز أن يتوهم السامع قبل ذكر ما بعده أن الحز كان فى بعض اللحم ولم ينته إلى العظم ، فترك ذكر اللحم ليبرىء السامع من هذا الوهم ، ويصور فى نفسه من أول الامر أن الحز مضى فى اللحم حتى لم يرده إلا العظم وقد صور « عبد القاهر » روعة ذلك الحذف وبلاغته بقوله :« أفيكون دليل أوضح من هذا وأبين وأجلى فى صحة ماذكرت

---

(١) عبد القاهر الجرجانى : دلائل الإعجاز ط ثانية ص ١٠٨

(٢) فالإيهام هنا كما فى سابقه : عيب ينبغى توقيه والاحتراز منه

(٣) ذدت : أى دفعت — والسورة : الشدة والصولة ، والتحامل : تكليف الأمر الشاق

لك من أنك قد ترى ترك الذكر أفصح من الذكر والامتناع من أن يبرز اللفظ من الضمير أحسن للتصوير ؟»(١) .

تقديم المسند إليه :

كما يجعل البلاغيون الايهام غرضا مستقلا من أغراض تقديم المسند إليه وهو : إيهام أنه لا يزول عن الخاطر أو أنه يستلذ فهو إلى الذكر أقرب ، كقول جميل :

بثنية ما فيها إذا ما تبصرت
معاب ولا فيها إذا نسبت أشب

الإيهام فى تخريج الكلام على خلاف مقتضى ظاهر الحال :

رأينا الإيهام فيما مضى يبدو غرضا مستقلا(٢) ، وقد يمثل قدرا كبيرا من بلاغة الكلام وهو ليس غرضا مستقلا كما نرى ذلك فى أساليب تخريج الكلام على خلاف مقتضى ظاهر الحال ، فمن ذلك .

---

(١) عبد القاهر : دلائل الإعجاز ص : ١٢٢ ط ثانية وعبد المتعال الصعيدى : بغية الإيضاح ١ / ٢٢١ ط خامسة

(٢) سواء كان سرا جماليا يعمل على تحصيله ، أو عيبا يحترز منه

الأسلوب الحكيم :

إذ أن تلقى المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على غير مراده على أنه الأولى بالقصد أو إجابة السائل بغير ما يطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بالقصد (١) مبنى على الإيهام كقوله تعالى : « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج وليس البر بان تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من أتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون » (٢) .

إذ أن أصحاب الرسول ﷺ سألوه عن الأهلة لم تبدو صغيرة ثم تكبر حتى يتكامل نورها ثم تتضاءل حتى لا ترى ، ولما كانت هذه مسألة من مسائل علم الفلك يحتاج فى فهمها إلى دراسة دقيقه طويلة صرفهم القرآن عن السؤال عنها ببيان أن الأهلة وسائل للتوقيت فى العبادات والمعاملات إشارة منه إلى أن الأولى بهم أن يسألوه عن هذا ، وإلى أن البحث فى العلوم يجب أن يرجأ قليلا حتى تتوطد الدولة ويستقر أمر الإسلام (٣) .

التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى وعن الماضى بلفظ المستقبل :

كما يعتمد التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى للدلالة على تحقق الوقوع وأن ما هو للوقوع كالواقع على الإيهام كقوله تعالى : « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » (٤) وكذلك التعبير عن الماضى بلفظ المستقبل

---

(١) وهو تعريف « الأسلوب الحكيم » (٢) سورة البقرة : ١٨٩ .

(٣) سعد الدين التفتازانى : المطول على التلخيص ص : ١٣٦ ط أحمد كامل .

(٤) سورة الزمر — الآية : ٦٨ .

لاستحضار صورته العجيبة لما يدل عليه الفعل المضارع من التجدد آناً بعد آن كقوله تعالى: «والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور»[1] أى فأثارت.

وضع الظاهر موضع المضمر والعكس:

ويتحقق أثر الإيهام بصفة واضحة فى وضع الظاهر موضع المضمر، إذ يتوهم السامع أن هذا الذى أظهر فى مقام الإضمار غير الأول، ثم يتبين له بالتأمل والتدبر أنه عين الأول، وقد جىء به مظهرا حيث كان المقام للإضمار لسر بلاغى، مما يجعله أكثر ثبوتاً وتحققا، وذلك كالإظهار فى مقام الإضمار لزيادة التقرير والتمكين فى قوله تعالى: «قل هو الله أحد. الله الصمد»[2] وقوله سبحانه: «وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيرا»[3]، كذلك يبرز دور الإيهام فى وضع المضمر موضع المظهر للأغراض البلاغية التى ذكروا منها: أن يتمكن فى ذهن السامع مايعقبه الضمير كقولهم: هو محمد عالم مكان: الشأن محمد عالم، فإن السامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقى منتظراً لعقبى الكلام كيف تكون؟ لما جبل الله النفوس عليه من التشوق إلى معرفة ما قصد ابهامه فيتمكن المسموع بعده فى ذهنه فضل تمكن وذلك هو السر فى التزام تقديم ضمير الشأن أو القصة[4]، قال تعالى: (إنه لا يفلح الكافرون) وقال: «فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور»[5]، ولأن

---

(١) سورة فاطر — الآية: ٩.
(٢) سورة الإخلاص الآية ١، ٢.
(٣) سورة الإسراء: ١٠٥.
(٤) السيوطى: الإتقان فى علوم القرآن ٣/٢١٦ ط أولى.
(٥) سورة الحج: ٤٦.

مايحصل بعد مقاساة التعب ومعاناه الطلب له فى القلب محل ومكانة لا تكون لما يحصل بسهولة ، ولهذا اشترط أن يكون مضمون الجملة شيئاً عظيماً يعتنى به فلا يقال : هو الذباب يطير[١] .

الإلتفات[٢] :

كما يبدو الإيهام بصورة أكثر وضوحاً فى الالتفات حيث يتوهم السامع من اختلاف طريقة التكلم من غيبة إلى خطاب ومن خطاب إلى غيبة مثلا أن المقصود بالحديث قد اختلف ثم بالتحقيق يتبين أن جهة الحديث واحدة وأن الاختلاف تمثل فى نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد ولأغراض أخرى يقتضيها المقام كما فى العدول عن الغيبة إلى الخطاب فى قوله سبحانه : « إياك نعبد وإياك نستعين » بعد قوله : « الحمد لله رب العالمين »[٣] لكون الحمد لله دون العبادة ، حيث إنك تحمد صديقك أو رئيسك ولا تعبده ، فلذلك استعمل لفظ « الحمد » لتوسطه مع الغيبة فى الخبر فقال : الحمد لله

---

(١) سعد الدين التفتازانى : المطول ص : ١٢٨ وعبد المتعال الصعيدى: بغية الإيضاح ١/١٤٧ .

(٢) والمشهور عند الجمهور أن الالتفات هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة : التكلم والخطاب والغيبة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها ، وهذا أخص من تفسير السكاكى ، لأنه أراد بالنقل أن يعبر بطريق من هذه الطرق عما عبر عنه بغيره أو كان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بغيره منها ، فكل التفات عندهم التفات عنده من غير عكس . عبدالمتعال الصعيدى: ١/١٥٢ .

(٣) فاتحة الكتاب .

ولم يقل : « لك » ، ولما صار إلى العبادة التى هى أقصى الطاعات قال : « إياك نعبد » (١) .

القصر :

ويظهر أثر الإيهام فى القصر عند استخدام طرقه فى غير المواقف التى جرت العادة باستخدامها فيها لأسرار بلاغية، وذلك كاستعمال النفى والاستثناء فى الأمر المعلوم الذى نزل منزلة المجهول لا عتبار مناسب وهو موضوع ليستعمل فى الأمور المجهولة أو التى من شأنها أن تكون مجهولة ، فيتوهم السامع أول الأمر أن ذلك الذى استعمل فيه النفى والاستثناء أمر مجهول كأصل استعماله ثم يبين له بالتأمل أنه معلوم فيأخذ فى البحث عن سر ذلك حتى إذا انتهى إلى السر كان أشد استقرارا بفكره لمجيئه بعد تعب ومعاناة ، كقوله تعالى : « وما أنت بمسمع من فى القبور . إن أنت إلا نذير » (٢) فذلك أمر معلوم له عليه الصلاة والسلام لا يحتاج معه إلى تنبيه فضلا عن تخصيص ، غير أنه ﷺ لشدة حرصه على هداية الناس كان يكرر دعوة الممتنعين عن الإيمان، فكان فى معرض من ظن أنه يملك مع صفة الإنذار إيجاد الهداية فى قلوب الممتنعين عن قبول الدعوة ، لهذا قصر على الإنذار قصر أفراد (٣) .

الفصل والوصل :

يبرز أثر الإيهام كذلك فى الفصل والوصل كأمر ينبغى دفعه وخطر يقتضى تجنبه ، فإذا كان عطف الجملة الثانية على الأولى يوهم عطفها على

(١) ضياء الدين بن الأثير : الجامع الكبير تحقيق : د . مصطفى جواد و د . جميل سعيد ص : ٩٨ ، ٩٩

(٢) سورة فاطر : ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) عبد المتعال الصعيدى : بغية الإيضاح ٢/٣٨ ، ٣٩ .

غـــيرها قطعت عنها ، وهو ما يسميه البلاغيون : شبه كمال الانقطاع ويستشهدون عليه بقول الشاعر :

وتظن سلمى أننى أبغى بها بدلا أراها فى الضلال تهيم

فلم يعطف فيه جملة : أراها على جملة وتظن سلمى مع وجود التناسب بينهما فى المسند إليه حيث إنه فى الأولى محبوب وفى الثانية محب ، وفى المسند كذلك إذ أن معنى : أراها : أظنها ، لئلا يتوهم أن العطف على جملة: أبغى لقربها ، فيكون مما تظنه سلمى وليس كذلك(١) .

وإذا كان بين الجملتين كمال الانقطاع مع الإيهام بأن تكون إحداهما خبرية والأخرى إنشائية وترك العطف بينهما يوهم خلاف المقصود وجب الوصل دفعاً لذلك الإيهام كقولك : لا : وبارك الله فيك لمن قال لك : ألك حاجة أساعدك فى قضائها ؟

فلا فى هذا الموضع قائمة مقام جملة خبرية ، إذ التقدير :« لا حاجة لى » وجملة : « بارك الله فيك » جملة إنشائية معنى خبرية لفظاً ، والعبرة بالمعنى .

ولو فصلت بين الجملتين فقلت : لا بارك الله فيك — لتوهم السامع أنك تدعو عليه ، فى حين أنك تقصد الدعاء له ، لذلك وجب العدول عن الفصل إلى الوصل ويطلق علماء البلاغة على ذلك: كمال الانقطاع مع الإيهام(٢).

الإطناب :

ويظهر أثر الإيهام فى كثير من وجوه الإطنات ، كذكر الخاص بعد

---

(١) عبد الرحيم العباسى : معاهد التنصيص ١/٢٨٠ وسعـــد الدين التفتازانى : المطول ص : ٢٥٧ ط : أحمد كامل

(٢) د. درويش الجندى — علم المعانى. دار نهضة مصر ص:٢٠٠، ٢٠١.

العام للتنبيه على فضله حتى كأنه ليس من جنسه تنزيلا للتغاير فى الوصف منزلة التغاير فى الذات كقوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »(١) فيتوهم من تخصيص الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالذكر بعد الدعوة إلى الخير أنها ليست من الدعوة إلى الخير وبالتأمل يتضح أنها داخلة فى عموم الدعوة إلى الخير وقــد خصت بالذكر للسبب السابق فيزداد الاهتمام بها .

ويظهر أثر الإيهام فى الأطناب بصورة أكثر وضوحاً فى التكرير حيث يتوهم أن الثانى عين الأول وبالتدبر يظهر أنه غيره وأن التكرير فى اللفظ لأسرار بلاغية منها : تعدد المتعلق كقوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » مذكورة أكثر من مرة فى سورة الرحمن ، لأنه سبحانه عدد نعما كثيرة وعقب كل نعمة بهذا القول ، ومعلوم أن الغرض من ذكره عقب نعمة غير الغرض من ذكره عقب نعمة أخرى ، وقد يتوهم أنه ولى ماليس نعمة كقوله تعالى : « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران »(٢) وقوله : « هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن »(٣) لكن هذا التوهم سرعان مايزول إذا ماعرف أن العذاب وجهنم وإن لم يكونا من آلائه تعالى فإن ذكرهما ووضعهما على طريق الزجر عن المعاصى والترغيب فى الطاعات من آلائه تعالى ، أو كما يقول الخطابى : « إن نعم الله تعالى فيما أنذر به وحذر من عقوباته على معاصيه

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٥ .
(٢) سورة الرحمن : ٣٥ .
(٣) سورة الرحمن : ٤٣ ، ٤٤ .

ليحذروها فيرتدعوا عنها بإزاء نعمه على ما وعد وبشر من ثوابه على طاعته ليرغبوا فيها ويحرصوا عليها »(١) .

وضع الخبر موضع الإنشاء والعكس :

وهذا درس من دروس علم المعانى يعتمد على الإيهام إلى حد كبير حيث تستعمل الأساليب على غير المعهود والمتبع فى استعمالها لأسرار بلاغية فيظنها القارىء مستعملة فى مجالها المعروف ثم يتبين له بالتأمل أنها قد استعملت فى غير سبيلها المعهود لسر مراد وهدف مقصود فتكون أحسن وقعاً وأكثر قبولا ، من ذلك إطلاق الخبر على الطلب أمراً أو نهياً أو دعاء مبالغة فى الحث عليه حتى كأنه وقع وأخبر عنه ، أو كما قال الزمخشرى : أنه أبلغ من صريح الأمر أو النهى كأنه سورع فيه إلى الامتثال وأخبر عنه نحو : (والوالدات يرضعن ..)(٢) أى ليرضعن — وقوله تعالى أيضاً : (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ..)(٣) . أى لاتنفقوا إلا ابتغاء وجه الله — وقوله : (لا يمسه إلا المطهرون)(٤) أى لا يمسه(٥).

كما يتضح الإيهام مع جميع الأغراض التى ذكرها البلاغيون لوضع الخبر موضع الإنشاء عدا ما تقدم ، كالتفاؤل وإظهار الرغبة فى حدوث

---

(١) الخطابى : بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ص : ٤٧ ، ٤٨ تحقيق : محمد خلف الله ود. زغلول سلام .

(٢) سورة البقرة : ٢٣٣ .

(٣) سورة البقرة : ٢٧٢

(٤) سورة الواقعة : ٧٩ .

(٥) السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ١١٩/٣ ط أولى تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم .

الشيء والاحتراز عن صورة الأمر التي تشعر بالاستعلاء المنافي للأدب، وحمل المخاطب على المطلوب وغيرها(١).

كذلك يدرك أثر الإيهام في وضع الإنشاء موضع الخبر للأغراض المتعددة التي كان منها: الاحتراز عن مساواة اللاحق بالسابق كقوله تعالى: «قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون»(٢) فلم يقل: «وأشهدكم»، بالإخبار، تحاشيا وفرارا من مساواة شهادتهم بشهادة الله تعالى (٣).

فتلك نماذج من علم المعاني يمثل الإيهام قدرا من بلاغتها، وقد بدا في بعضها غرضاً مستقلا يوفر الحسن، كما بدا في بعضها الآخر غرضاً مستقلا يحترز منه، وفي بعضها الثالث رأيناه وجها من وجوه التصرف وسبيلا من سبل التفنن في الكلام، فلننتقل بعد إلى وجوه البيان لنتبين أثر الإيهام فيها.

---

(١) د. درويش الجندي: علم المعاني ص: ٦٠، ٦١ دار نهضة مصر.

(٢) سورة هود: ٥٤

(٣) وقد فسر الزمخشري العدول عن صيغة الخبر إلى صيغة الأمر في الإشهاد بأنه للتهاون بهم وقلة المبالاة بأمرهم وقال: «فإن قلت: هلا قيل: إني أشهد الله وأشهدكم؟ قلت: لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب. فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه: أشهد على أني لا أحبك — تهكما به واستهانة بحاله» كما فسر ابن المنير، هذا العدول من الخبر إلى الأمر بمثل ما ذكره البلاغيون من أنه للتمييز بين خطابة لله تعالى وخطابه لهم، =

التشبيه :

قد يبدو الإيهام في التشبيه غرضاً غير مستقل ، وسبيلا من سبل التفتن في إبداعه والتصرف في حسنه وجماله ونلمح ذلك في التشبيه المحذوف الوجه والأداة لايهام أن الكلام مستعمل على وجهه الظاهر وأن حديث التشبيه لم يجر على بال ولم يطف بخيال كقول الشاعر :

والريح تعبث بالغصون وقد جرى
ذهب الأصيل على لجين الماء

بإضافة المشبه به إلى المشبه في كل أي، أصيل كالذهب وماء كاللجين فإضافة المشبه بة إلى المشبه في كل مع حذف الوجه والأداة قللت من عملية المشابهة التي هي في الأصل إلحاق للأدنى بالأعلى والناقص بالكامل وأوهمت أن الأصيل فعلا ذهب والماء فضة لما هو معروف من أن المضاف والمضاف إليه كالشيء الواحد ، ولما كان هذا النوع من التشبيه يحتاج الى تأمل في فهمه وتدبر في الوقوف عليه أطلق عليه بعض علماء البلاغة التشبيه البليغ من البلاغة بمعنى اللطف والحسن لا من البلاغة بمعنى المطابقة لمقتضى الحال ، لأن التشبية لا يتفاوت هذا التفاوت من تلك الناحية ، ولأن الشيء إذا نيل بعد الطلب له والاشتياق إليه كان نيله أحلى وموقعه من النفس ألطف وبالمسره أولى[1] .

= إذ عبر عن خطاب الله تعالى بصيغة الخبر التي هي أجل وأوقر للمخاطب من صيغة الأمر . الزمخشري : الكشاف ٢ / ٤٠٣ وابن المنير : الانتصاف ٢ / ٤٠٣

(١) عبد المتعال الصعيدي : بغية الإيضاح ٣/٧٢

كما يبدو الإيهام غرضاً غير مستقل ووجها من وجوه التصرف فى حسنه فيما يعرف بالتشبيه الضمنى ، الذى تتم عملية التشبيه فيه على غير السبل المألوفة فى التشبيه من ذكر الطرفين والوجه والأداة أو الاكتفاء ببعضها مما يحقق المشابهة ، ولكن يلمح التشبيه من سياق الكلام ويفهم من مضمونه) كقول الشاعر :

فإن تفق الأنام وأنت منهم
فإن المسك بعض دم الغزال

إذ بنى حكمه فى الشطر الأول من البيت على أن الممدوح أصل برأسه وفرد يشار إليه بالبنان ، ولا يوجد فى الناس من يماثله على الرغم من كونه واحداً من جنسهم ، ولما كان فى هذا الحكم شئ من الاستغراب أتى بالشطر الثانى ليكون كالدليل على صحة الحكم الذى تضمنه الشطر الأول وهو أن المسك يعد أشرف شئ فى جسم الغزال وهو منه فكان هذا التشبيه الضمنى دليلا على ما قرره الشاعر من أن الفرع قد يفوق أصله ، وقد فهم من مضمون الكلام فكان التشبيه فيه ضمنياً ، وقد رأيت وجه الإيهام فيه .

ونلمح الإيهام غرضاً مستقلا فى التشبيه أيضاً ، فى التشبيه المقلوب أو المعكوس وهو الذى يجعل فيه المشبه مشبها به والمشبه به مشبها لإيهام أن المشبه به أتم من المشبه فى وجه الشبه كقول محمد بن وهيب الحميرى من قصيدة يمدح بها المأمون :

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح[1]

---

(١) الغرة فى الأصل: البياض فى جبهة الفرس ، وقد استعيرت لبياض الصبح ، وفى قوله : « حين يمتدح » دلالة على اتصاف الممدوح بمعرفة حق المادح وتعظيم شأنه عند الحاضرين بالإصغاء إليه والإرتياح له، وعلى =

فقد جعل الصباح وهو أصل فى الجمال مشبها ووجه الخليفة عند سماع المديح مشبها به لإيهام أن وجه الخليفة أتم من الصباح فى الوضوح والضياء ، ومنه قوله تعالى حكاية عن مستحلى الربا : (إنما البيع مثل الربا . .)(١) فإن مقتضى الظاهر أن يقال : إنما الربا مثل البيع — إذ الكلام فى الربا لا فى البيع ، فخالفوا لجعلهم الربا فى الحل أقوى حالا من البيع وأعرف به(٢) .

ويقول الزمخشرى : جىء به على طريق المبالغة ، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم فى حل الربا أنهم جعلوه أصلا وقانونا فى الحل حتى شبهوا به البيع(٣) .

ولأحمد بن المنير صاحب الانتصاف على الكشاف تعليق على التشبيه فى الآية يبدو مقبولا حيث يحقق المعنى السابق بدون أن يكون هناك إيهام بقلب التشبيه أو عكسه إذ يقول :« إنه متى كان المطلوب التسوية بين المحلين فى ثبوت الحكم فللقائل أن يسوى بينهما طرداً فيقول مثلا : الربا : مثل البيع وغرضه من ذلك أن يقول : والبيع حلال فالربا حلال وله أن يسوى بينهما فى العكس فيقول : البيع مثل الربا ، فلو كان الربا حراما كان البيع حراماً ضرورة المماثلة ، ونتيجته التى دلت قوة الكلام عليها أن يقول : ولما كان البيع حلالا إتفاقاً غير حرام وجب أن يكون الربا مثله ،

= كونه كاملا فى الكرم ، يتصف بالبشر والطلاقة عند استماع المديح — عبد الرحيم العباسى : معاهد التنصيص ٥٩/٢ ، وسعد الدين التفتازانى : المطول : ٣٣٤

(١) سورة البقرة : ٢٧٥

(٢) عبد المتعال الصعيدى : بغية الإيضاح ٤٣/٣ ، ٤٤ ط خامسة .

(٣) الزمخشرى : الكشاف : ٣٢٠/١ ، ٣٢١

والأول على طريقة قياس الطرد ، والثانى على طريقة قياس العكس ومآلها إلى مقصد واحد فلا حاجة على هذا التقرير إلى خروج عن الظاهر لعذر المبالغة أو غيره ، وليس الغرض من هذا كله إلا بيان هذا الذى تخيلوه على أنموذج النظم الصحيح وإن كان قياساً فاسد الوضع ، لاستعماله على مناقضة المعلوم من حكم الله أيضاً فى تحريم الربا وتحليل البيع وقطع القياس بينهما .. فهذا التوجيه أولى أن تحمل الآية عليه »(١) .

فترى أن الإيهام كان واضح الأثر فى التشبيه سواء كان غرضاً مستقلا أو وجهاً من وجوه التصرف فى جمال التشبيه وإبداعه ، وأنه فى كل قد زاد التشبيه علواً وأكسبه بعداً وغرابة ، بحيث لا يدركه إلا المروون ولا يفطن لروعته إلا المجيدون .

المجاز :

ويعتمد الأثر البلاغى للمجاز إلى حد كبير على الإيهام ، أو يشكل الإيهام جانباً هاما من الأسرار البلاغية للمجاز لما يتوهم أول الأمر من أن الكلام على ظاهره ومستعمل فى معناه الحقيق ، ثم يتبين بالتأمل والتدقيق أن له معانى خفية ، فيؤدى ذلك التأمل فى معرفة هذه المعانى والوصول إليها إلى ثبوتها وتقررها على وجه أقوى ، ونرى ذلك فى المجاز بأنواعه : عقلياً ولغوياً كقول أبى الطيب المتنبى :

وتحى له المال الصوارم والقنا
ويقتل ما تحيى التبسم والجدا(٢)

---

(١) ابن المنير : الانتصاف على الكشاف ١/٣٢٠ ، ٣٢١

(٢) الجدا : العطاء .

فقد اسند زيادة المال ووفرته للسيوف الصارمة ، وتوزيعه على المعوزين والمحتاجين للتبسم والعطاء ، مع أن الفعل لا يصح وقوعه منهما أى : السيوف والعطاء لأنهما سببان ، فأوهم الإسناد إليهما فى الظاهر أنهما الفاعلان الحقيقيان ، ثم تبين بالتأمل أنهما ليسا الفاعلين فى الحقيقة ، وأنهما سبب فى الفاعل الحقيق ، ولكى يبين الشاعر قيمة ذلك السبب ومدخليته فى تحقيق الفعل أسند الفعل إليه ليحقق بتصرفه هذا الإيجاز فى التعبير ، وتوضيح المعنى المراد وتقريره ، والمبالغة فى قيمة ذلك السبب ومدى أهميته بالنسبة للفاعل الحقيق ، وقد زاد التعبير جمالا بعد أن أضاف إلى ذلك التفنن تفنناً آخر تمثل فى التجوز اللغوى على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية فى كل من : تحى ويقتلا بجعل زيادة المال وكثرته إحياء وتفريقه وتوزيعه قتلا .

الكناية :

كما يمثل الإيهام عنصراً هاماً من أسرار بلاغة الكناية : إذ أنها اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الأصلى ، ويتردد السامع أول الأمر فى تحديد المعنى المراد حتى يقف عليه بالقرائن ؛ مما يجعله بمحل من القبول والتقدير لمجيئه بعد تعب وتأمل ، ويتحقق هذا فى كل أنواع الكناية ، فالشنفرى حين يقول فى وصف إمرأة بالعفة بأسلوب الكناية عن نسبة :

يبيت بمنجاة من اللوم بيتها ⠀⠀⠀ إذا ما بيوت بالملامة حلت

يتوهم منه أول الأمر أن المراد نفى اللوم عن بيتها ، ثم يتبين بالتأمل والتدبر أن المقصود هو : نفى اللوم عنها على أبلغ وجه ، حيث إن اللوم إذا نفى عن بيت تقيم فيه استلزم نفيه عنها ، فكان أقوى من نفى اللوم

عنها ؛ لأنه بهذه الصورة أضحى كالدعوى بالبينة والدليـــل ، وقد زاد « الشنفرى » الكناية السابقة دقة وجمالا إذ عبر « بيبيت » دون « يظل » لمزيد اختصاص الليل بالفجور والآثام(١) .

التعريض :

ويظهر أثر الإيهام فى التعريض وهو: المعنى الحاصل عند اللفظ لا به كقوله تعالى : « قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون »(٢) إذ يتوهم أول الأمر أن إسناد إبراهيم عليه السلام تكسير الأصنام إلى أكبرهم على حقيقته ، ثم يتبين أنه يقصد تأكيد جهلهم وضعف عقولهم حيث يعبدون أصناماً لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع ، وكأنه يريد أن يقول لهم : كيف تعبدون ما لا يجيب إن سئل ، وتجعلونه شريكا لمن له الخلق والأمر ؟ وواضح أن الاستفهام فيه للتقرير بالفاعل لا بالفعل ، إذ أنهم يعلمون أنه الذى كسر الأصنام ويطلبون منه الإقرار بذلك ، والفعل وهو التكسير ظاهر وموجود بدليل الإشارة إليه ، وفى نسبة الفعل إلى كبير الأصنام إشارة إلى أن التقرير للفاعل ولو كان للفعل لقال : فعلت أو لم أفعل .

فندرك من ذلك أثر الإيهام فى فنون البيان ، ونعرض إذا لآثاره فى بعض فنون البديع .

(١) د . أحمد موسى : البلاغة التطبيقية صـ ٢٤٤ ط أولى .

(٢) سورة الأنبياء : ٦٢ ، ٦٣

إيهام التضاد :

هو نوع من الطباق ونرى الإيهام فيه يبدو غرضاً مستقلا كما يشير إلى ذلك عنوانه ، وقد قيل فى تعريفه : إنه الجمع بين معنيين غير متقابلين عبر عنهما بلفظين يتقابل معناهما الحقيقيان، وأثره يتمثل فى زيادة التأمل والنظر مما يزيد المعانى ثباتاً ورسوخاً ، وذلك كقول دعبل :

لا تعجبى ياسلم من رجـــل ضحك المشيب برأسه فبكى

إذ يتوهم أن فى البيت تضاداً أوطباقاً بين ضحك وبكى ، ثم يظهر بالتأمل أنه لا يوجد تطابق فى الحقيقة ، وإن أوهم الظاهر ذلك ، لأن الضحك يقصد به كثرة الشيب وظهوره على سبيل الاستعارة التصريحيه التبعية وهو من هذه الجهة لا يضاد البكاء ، وإن بدا أنه يناقضه فى ظاهر الأمر ، ولذا سمى : إيهام التضاد (١) .

التورية :

والإيهام فى التورية يبدو أكثر من غرض مستقل ، أوسبيل من سبل التفنن فى الكلام والتصرف فى حسنه إذ أن التورية تمثل الإيهام بكل خصائصه ، حيث إن الإيهام هو سلوك الطرق الخفية للوصول إلى تأكيد الأغراض المقصودة ، وهو المعنى الذى تقوم عليه التورية إذ أنها : لفظ له معنيان قريب غير مراد وبعيد مراد بقرينة خفية توضح أن المراد هو البعيد ، كقول نصير الدين الحمامى (٢) :

---

(١) عبدالرحيم العباسى: معاهد التنصيص ٢/١٨٤ وعبدالمتعال الصعيدى: بغية الإيضاح ٤/١٢ .

(٢) شاعر مصرى كان يحترف با كتراء الحمامات ، مات سنة ٧١٢ هـ .

أبيات شعرك كالقصور ... ولا قصور بها يعوق (١)
ومن العجائب لفظها ... حر ومعناها رقيق

فكلمة « رقيق » لها معنيان : الأول قريب متبادر وهو العبد المملوك وسبب تبادره إلى الذهن ما سبقه من لفظ : « حر » والثانى بعيد وهو اللطيف السهل وهو الذى يريده الشاعر وقد ستره المعنى القريب(٢) فالإيهام أظهر ما يكون فى التورية ، ولذا سماها بعض البلاغيين : التورية أو الإيهام ، وقد سبق أن ذكرنا أن الإيهام من سمات البلاغيين وسبيل من سبل التفنن والتصرف فى الأساليب ، ويؤكد ذا أن البلاغيين ختموا كلامهم عن التورية بأن التوهم إذا اشتد استحكامه بحيث لا يدرك عدم إرادة المعنى القريب إلا بتأمل وطول نظر كان أكثر بلاغه لما يستوجبه ذلك من فكر زائد وتأمل طويل ، كقول الشاعر :

حملناهم طراً على الدهم بعدما ... خلعنا عليهم بالطعان ملابسا

فالدهم جمع أدهم ومعناه القريب : الفرس الأسود ، ومعناه البعيد : القيد من الحديد وهو المراد بقرينة ماذكره من خلع الدماء عليهم بالطعان حتى صارت لهم كالملابس ، لأنه لا يصح مع هذا أن يكون المراد حملهم على الأفراس ، والشاهد فى أن قوله : حملناهم يفيد استحكام التوهم فى البيت حتى لا يدرك عدم إرادة المعنى القريب إلا بتأمل وطول نظر (٣) .

فالتورية إذا كان الإيهام يبدو فيها واضحاً حتى أطلق عليها بعض البلاغيين : الإيهام ، فإنها من جهة أخرى توضح ما يحدثه تعدد الألقاب من لبس

---

(١) يعوق : أى يمنع من ادراك جمالها .
(٢) على الجارم ، ومصطفى أمين ــ البلاغة الواضحة ص :٢٧٦:ط:١٧ .
(٣) عبد المتعال الصعيدى : بغية الإيضاح ٢٩/٤ .

واضطراب وبدون ما فائدة ، إذ وضع لها أكثر من لقب ، وأطلق عليها البلاغيون عناوين متعددة منها : التورية والإيهام والكناية والتعريض والإلغاز والأحجية والتخييل (٢) وذلك لا يحقق الهدف البلاغي بقدر ما يؤدي إلى البلبلة والاضطراب .

المشاكلة :

ويظهر الإيهام بوضوح كذلك في المشاكلة إذ أنها : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً (٣) ، إذ يتوهم السامع أن اللفظ الثاني عين الأول فيظهر له بالتأمل أنه غيره الأمر الذي يمكنه من نفسه ، وذلك كقول الله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين » (٤) .

فلا يدرك أن السيئة الثانية يراد بها الجزاء وأنها غير الأولى إلا بعد تأمل وتدبر ، وقد عبر عن الجزاء بلفظ السيئة مبالغة في شدته وإيجازا في التعبير .

الاستخدام :

وقد عرفه الخطيب القزويني بأن يراد بلفظ له معنيان أحدهما وبضميره معناه الآخر ، أو يراد بأحد ضميريه أحدهما وبالآخر الآخر (٤) . ويبدو

---

(١) يحيى العلوي : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ٣/٢ ، ٣ ومن ص : ٦٢ — ٦٧ ط المقتطف القاهرة ١٩١٤ .

(٢) عبد المتعال الصعيدي : بغية الإيضاح ٢٣/٤ .

(٣) سورة الشورى : ٤٠ .

(٤) عبد المتعال الصعيدي : بغية الإيضاح ٢٣/٤ .

الإيهام فيه واضحاً كما ترى إذ يتوهم أن الضمير يعود على اللفظ المذكور، وبالتدبر يظهر أنه يعود إلى معنى آخر للفظ فيؤدى ذلك إلى مزيد من التأمل والتدبر وهذا كقول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

فقد أراد بالسماء الغيث على سبيل المجاز المرسل لعلاقة المجاورة، وأراد بالضمير فى « رعيناه النبات » الذى ينمو على الغيث على سبيل المجاز المرسل أيضاً لعلاقة السببية والقرينة التى حددت المعنى المراد وصرفت رجوع الضمير إلى لفظ : السماء — أن الرعى لا يكون للماء وإنما يكون للنبات.

التغاير :

وهو فن بديعى لم يذكره الخطيب القزوينى، ويبدو الإيهام فيه واضحاً، بل إنه يعتمد على الإيهام ويمثل الإيهام قسطاً وافرا من بلاغته ، وندرك هذا من تعريف البلاغيين والأدباء له ومن الشواهد التى استشهدوا بها عليه، وقد سماه « أبوهلال العسكرى » : التلطف بمعنى : أن يتلطف للمعنى الحسن حتى يهجنه وللمعنى الهجين حتى يحسنه (١) .

---

(١) أبو هلال العسكرى : الصناعتين ص ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، وقد ذكر منه العسكرى نوعا آخر سماه : مدح المذموم وذم المحمود — وهو أن يحتج للمحمود حتى يصيره فى صورة المذموم ، وأنه يحتج للمذموم حتى يخرجه فى معرض المحمود — ومثل له بقول عبد الملك بن صالح فى ذم المشورة وهى ممدوحة بكل لسان : ما استشرت أحدا إلا تكبر على وتصاغرت له ، ودخلته العزة ودخلتنى الذلة، فعليك بالاستبداد فإن صاحبه جليل، فى العيون، مهيب فى الصدور، وإذا افتقرت إلى العقول حقرتك العيون ، فتضعضع =

ومن ذلك قول علي كرم الله وجهه في مدح الدنيا مغايرا لأمثاله في ذمها من خطبة له : « إن الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ، ودار موعظة لمن اتعظ بها ، مسجد أحباب الله ، ومصلى ملائكته ، ومهبط وحي الله ، ومتجر أوليائه ، اكتسبوا منها الرحمة، وربحوا منها الجنة »(١).

فترى من تعريف هذا اللون والتمثيل عليه أن الإيهام كما ذكرنا يعد سرا من أسرار بلاغته ، إذ أنه يجيء على خلاف الطريق المألوف في المدح والذم كما ينبيء عن ذلك عنوانه مما يجعله مثيراً للمشاعر ولافتاً للأنظار مما جعله سبيلا من سبل بروز الشعراء والأدباء ، فقد قيل للأصمعي : من أشعر الناس ؟ قال : الذي يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيرا ، أو يأتي إلى المعنى الكبير فيجعله بلفظه خسيسا ، كما قالوا : حسن البلاغه : أن يصور الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق (٢) .

تأكيد المدح بما يشبه الذم وتأكيد الذم بما يشبه المدح :

ويقرب من التغاير في وضوح أثر الإيهام فيه الفن البديعي الذي يعرف بتأكيد المدح بما يشبه الذم وتأكيد الذم بما يشبه المدح — حيث تسلك سبيلا للمدح يتوهم منه أنك تذم ، وسبيلا للذم يوهم أنك تقصد المدح ،

= شأنك، ورجفت بك أركانك، واستحقرك الصغير، واستخف بك الكبير، وما عز سلطان لم يغنه عقله عن عقول وزرائه وآراء نصحائه — المرجع السابق ص : ٥٩ فلا نجد فرقا بين اللونين وقد جعلهما أبو هلال العسكري نوعين كما ترى .

(١) علي الجندي : البلاغة الفنية : ١٠٦ — ١١٧ ط ثانية .

(٢) ابن رشيق : العمدة ١/٦٥ ، ٢/٤٦ — ٥٠ ط أولى .

فيكون ذلك أبلغ لمدحـــك وأقوى لذمك ، فمثـال الأول قول النابغة الذبيانى :

ولا عيب فيهم غـير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الـكتائب(١)

أي لا عيب فيهم إلا الشجاعة إن كانت الشجاعة عيبا ، وكون الشجاعة عيبا محال ، فيكون ثبوت العيب لهم محالا .

ومثال الثانى قول الشاعر :

فإن من لامنى لا خير فيه سوى وصـفى له بأخس الناس كلهـم

أى لا خير فيه سوى الأخسية إن كانت خيرا وكون الاخسية خيرا محال ، فيكون ثبوت الخير لهم محالا .

فنرى أن بلاغة هذا اللون تتمثل فيما يشتمل عليه من إيهام حيث يجىء على غير الطريق المألوف والسبيل المعهود ، ولذلك قيل فى سر بـلاغته : أنه كدعوى الشىء ببينة ودليل وان الأصل فى الاستثناء أن يكون متصلا فإذا نطق المتكلم بالإ أو نحوها توهم السامع قبل أن ينطق بمـا بعدها أن ما يأتى بعدها مما قبلها، مخرج فإذا جاء ما بعد أداة الاستثناء من جنس ما قبلها تأكد المدح أو الذم لـكونه مدحاً على مدح أو ذما على ذم ، ففيه نوع من الخلابة — أى خداع الـكلام(٢) .

---

(١) الفلول : جمع فل وهى : الثلمة فى حد السيف ، والقراع : المضاربة والـكتائب : جمع كتيبة وهى القطعة من الجيش

(٢) عبد المتعال الصعيدى : بغية الإيضاح ٤ / ٥٨ — ٦١

التفويف :

وله مفهومان عند البلاغيين : المفهوم الأول ولا أثر للإيهام فيه وهو ما ذكره الخطيب القزويني : أن يؤتى في الكلام بمعان متلائمة ، في جمل مستوية المقادير أو متقاربتها ، كقول عنترة :

إن يلحقوا أكرر ، وإن يستلحقوا
أشدد ، وإن نزلوا بضنك أنزل(١)

والمفهوم الثاني الذي يظهر أثر الإيهام فيه هو ما ذكره يحيى بن حمزة العلوي وهو يتصل بتأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه من أنه : وصف الممدوح بما يدل على مدحه من صفات المكارم ، وسمات المحامد ثم الإتيان بصفات تدل على ذمه ، ولكن يقترن بها ما يرشد إلى كونها مدحا ، كقول جرير :

هم الأخيار منسكة وهديا ... وفي الهيجا كأنهم صقور
بهم حدب الكرام على المعالي ... وفيهم عن مساويهم فتور
خلائق بعضهم فيها كبعض ... يؤم كبيرهم فيها الصغير
عن النكراء كلهم غبي ... وبالمعروف كلهم بصير(٢)

فتشبيهم بالصقور على إطلاقه ذم ، لأن من شأن الصقور الخطف والبغي ، وتوصف بالبخر ، ولكن اقترانه « بالهيجا » جعله مدحا ، لأن الإنسان إذا كان في الحرب صقرا كان باسلا غلابا — كما أن وصفهم بالفتور —

---

(١) يستلحقوا : يطلبون أن ألحق بهم .

(٢) المنسكة : التزهد والتعبد ، والهيجاء بالمد والقصر : الحرب — الحدب : العطف

وهو ضفف وعجز : ذم ، ولـكن اقترانه بعطفهم على المعالى ، وولوعهم بها صيره مدحا ساميا .

واتهام الـكبير بالصغير نهاية الخمول ، واقـترانه بأنهم يتساوون فى الأخلاق الـكريمة والصفات العالية رفعه إلى الغاية من الثناء والمديح ، والغباوة فى ظاهرها صفة ذم ، ولما اقترنت بأنهم بصراء بالمعروف تحولت إلى مدح عظيم .

فنرى من ذلك أن اللون البديعى قد يفسر أكثر من تفسير كما تبين لنا من اختلاف البلاغيين فى تفسيرهم للتفويف وان دراسة الفنون البلاغية والبديعية على هذا النهج تحسم المشكلات التى تنشأ عن ذلك واهمها : البلبلة والاضطراب والتداخل والتـكرار .

تجاهل المعارف :

ويظهر الإيهام بوضوح فى اللون البديعى الذى يعرف « بتجاهل العارف »(١) وهو : ان تسأل عن شيء تعلمه موهماً انك لا تعرفه وانه مما خالجك فيه الشك والريبة(٢) .

ويعد الإيهام أوضح الأسرار البلاغية لهذا اللون ، إذ يتوهم اول الأمر ان الـكلام على ظاهره ، ثم يظهر بالتأمل ان ادعاء عدم العلم لأسرار بلاغية كالتعريض بالـكفار وانهم على الباطل والضلال وان الإسلام هو الدين الحق ودين الهدى الذى ينبغى اتباعه فى قول الله تعالى : « وإنا او إياكم

---

(١) سماه السكاكى : سوق المعلوم مساق غيره تأدبا لوروده فى كلام الله عز وجل . عبد المتعال الصعيدى : بغية الإيضاح ٤ / ٦٧

(٢) يحيى العلوى : الطراز ٣ / ٨٠ ، ٨١

لعلى هدى أو فى ضلال مبين»(١) كما ان هناك فائدة اخرى لمجىء التعبير القرآنى على هذا الوجه من الإيهام هى : انه يبعث المشركين على التأمل فى حال النبى ﷺ والمؤمنين وإذا فكروا فيما هم عليه من إغارات بعضهم على بعض وسبى ذراريهم واستباحة اموالهم وقطع الأرحام وإتيان الفروج الحرام وقتل النفوس التى حرم الله قتلها وشرب الخمر التى تذهب العقول وتحسن ارتكاب الفواحش وفكروا فيما النبى عليه السلام والمؤمنون عليه من صلة الأرحام واجتناب الاثام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإطعام المساكين وبر الوالدين والمواظبة على عبادة الله تعالى علموا أن النبى عليه السلام والمسلمين على هدى وأنهم على الضلالة ، فيبعثهم ذلك على الإسلام وهذه فائدة عظيمة(٢) .

الجناس :

عده البلاغيون المتأخرون من المحسنات اللفظية التى يعود تحسينها إلى اللفظ أولا وبالذات وإلى المعنى ثانياً وبالعرض ، وحكموا على الجناس بما حكموا به على كل فنون البديع من أنه محسن عرضى يؤتى به قصداً للتحسين بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ووضوح الدلالة على المعنى المراد ، وإذا كان قد غاب عنهم أن القرآن الكريم وهو كنز البلاغة قد اشتمل على كثير من هذه الفنون فوقعت فيه أروع موقع وصادفت أسمى مكان فإنهم بهذا الصنع قد ناقضوا مقياس البلاغة وهو المطابقة لمقتضى الحال الذى يعتبر كل ما استلزمه المقام من صميم البلاغة . وكل ما لم يناسب الحال وما لا يقتضيه المقام بعيداً عن البلاغة ويشمل ذلك كل فنون البلاغة فى المعانى والبيان والبديع(٣) .

---

(١) سورة سبأ : ٢٤

(٢) سعد الدين التفتازانى : المطول ص : ٤٤٣ ، ٤٤٤

(٣) د. فتحى فريد . البديع — المقدمة

والإيهام بالنسبة للجناس يتعدى كونه غرضاً مستقلا ، أو لونا من ألوان التصرف والتفنن ، أو عيباً يحترز منه كما بدا ذلك فى كثير من فنون البلاغة التى مرت بك ، وإنما يعد الإيهام السر البلاغى للجناس والعنصر الجمالى الذى اعتمد عليه من قـــــرروا أصالة البديع عامة وحكموا ببلاغة الجناس إذا صادف موقعه وخلا من التكلف بصفة خاصة .

ويبدو الإيهام كسر بلاغى للجناس فيما يحدثه اتفاق الكلمة الثـانية أو تشابهها مع الـكلمة السابقة من الناحية الشكلية من توهم أنهما سواء فى المعنى ثم يظهر بالتأمل والتدبر أن معنييهما مختلف تماما فيؤدى التأمل الطويل إلى استقرار المعانى وثباتها ، فجمال الجناس إذا يتجاوز جمال الإيقاع وعذوبة النغم الناشئين عن تماثل الحروف وتـكررها إلى صميم المعـانى فيكسبها تأكيداً ويحقق لها رسوخاً وثباتاً ، وقد افتتح « عبدالقاهر »أسرار البلاغة» بالحديث عن هذا الإيهام وذلك الخداع الذى يعد السر البلاغى للجناس فيقول : « وها هنا أقسام قد يتوهم فى بدء الفكرة ، وقبل إتمام العبرة أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس إلى ما يناجى فيه العقل والنفس ، ولها إذا حقق النظر مرجع إلى ذلك ومنصرف فيما هنالك ، منها التجنيس والحشو (١) .

ثم ينوه عبد القاهر بالإيهام فى الجناس من خلال الشواهد فيقول : « واعلم أن النـكتة التى ذكرتها فى التجنيس ، وجعلتها العلة فى استيجابه الفضيلة ، وهى حسن الإفادة مع أن الصورة صورة التـكرير والاعادة ، وإن كانت لا تظهر الظهور التام الذى لا يمكن دفعه إلا فى المستوفى المتفق الصورة منه كقول أبى تمام :

---

(١) عبد القاهر الجرجانى : أسرار البلاغة ص : ٣ تحقيق : السيد رشيد رضا ط سادسة .

ما مات من كرم الزمان فإنه
يحيا لدى يحيي بن عبد الله

أو المرفو الجارى هذا المجرى كقوله : أو دعانى أمت بما أودعانى ، فقد يتصور فى غير ذلك من أقسامه أيضاً ، فما يظهر ذاك فيه ماكان نحو قول أبى تمام .

يمدون من أيد عواص عواصم
تصول بأسياف قواض قواضب

وقول البحترى :

لئن صدفت عنا فربت أنفس
صواد إلى تلك الوجوه الصوادف[1]

وذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من : عواصم والباء من : قواضب أنها هى التى مضت وقد أرادت أن تجيئك ثانية ، وتعود إليك مؤكدة ، حتى إذا تمكن فى نفسك تمامها ، ووحى سمعك آخرها انصرفت عن ظنك الأول ، وزلت عن الذى سبق من التخيل ، وفى ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها ، وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال »[2] .

فهذا الذى ذكره عبد القاهر يوضح لنا قيمة الفنون البديعية عامة وفن

---

(١) صدفت : انصرفت — والصوادى : جمع صادية اسم فاعل من الصدى وهو العطش الشديد شبه بهشدة الشوق إليهن ثم استعير له لستعارة تصريحية تبعية — والشاهد فى قوله : صواد وصوادف .

(٢) عبد القاهر : أسرار البلاغة ص : ١١ ، ١٢ ط سادسة .

الجناس بصفة خاصة إذا جاءت فى موضعها وصادفت موقعها ولم تكن متكلفة ولا مجتلبة، كما تتبين أن للجناس سراً بلاغياً يتجاوز حلاوة الجرس وعذوبة النغم إلى الإيهام والخداع الذى يتخيل معه أن اللفظتين متحدتان فى المعنى وهما فى الحقيقة مختلفتان وفى ذلك ما قرره من حسن الإفادة مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة.

وبعــد :

فتلك نماذج متنوعة من علوم البلاغة الثلاثة رأينا أنه يمكن جمعها ودراستها تحت سر بلاغى واحد وهو الإيهـام، وأن فى ذلك تقليلا للأقسام وعونا على الضبط والحصر ومنعاً للبلبلة والإضطراب، وادخارا للوقت والجهد، وإقبالا على تحقيق الأهداف التى ينبغى أن يبلغها الدرس البلاغى .

الخاتمة :

إذا كان كل عمل يوزن بقيمته، ويقدر بنتائجه وآثاره، فإن قيمة الدرس البلاغى تتمثل فيما يحققه من فوائد لغوية وما يصل إليه من أسرار بلاغية، وذلك يدعو إلى تطوير الدرس البلاغى وتجديده تطويراً يحقق له أهدافه، وتجديداً يحافظ على كيان البلاغة ويضمن لها تميزها، ويعتمد أصلا وأساساً على التراث العربى والأدبى، حيث إنه خير ما يضمن للبلاغة الأصالة ويحقق لها الجدة .

ولما كان داء المصطلحات من أوضح الأدواء التى أصابت البلاغة العربية فى طورها المتأخر فعوق سيرها وعرقل نموها، ومنعها من بلوغ أهدافها فقد قدم البحث علاجاً يحد من خطره، ويقلل من ضرره، ويعيد الدرس البلاغى إلى مساره الطبيعى وهدفه الأساسى، وتمثل ذلك العلاج فى جمع

كل الفنون البلاغية التى تلتقى على سر بلاغى معين ، ودراستها من خلاله ، وإذ تؤدى تلك الطريقة إلى تقليل الأقسام والتمكين من حصرها وضبطها فإنها أيضاً تزيل ما يبدو بين الفنون البلاغية من تداخل وتضارب وما تعانيه الأفهام من عنت وإرهاق عند التوفيق بينها ، وذلك هام وضرورى لجنى الثمار المطلوبة والأغراض التى ينبغى أن يؤديها درس البلاغة .

« وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .

البلاغـــة

بين الطبع والصنعة ✲

الحمد لله الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم . والصلاة والسلام على المؤيد بالقرآن سيدنا محمد بن عبد الله أفصح الناطقين بلغة القرآن وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

وبعـــد

فقد تعددت اتجاهات الداعين إلى تجديد بلاغتنا العربية وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ، وسلكوا طرائق قددا كان بعضها معقولا وكثيرها متجاوزاً حد العقل .

ونرجو أن تكون هذه الصفحات فى خدمة بلاغتنا من الصنف الأول الذى لايبلغ درجة الغلو فى حكمه ، ولا يقضى بسرعة على جهود أعلام وفكر أجيال .

وقد وضعت تلك الصفحات تحت عنوان : « البلاغـــة بين الطبع والصنعة » وجاءت فى : تمهيد وأربعة فصول وخاتمة .

فعرض التمهيد لما جاء فى كلام « سعد الدين التفتازانى » من عدم اقتدار كثير من علماء البلاغة على تأليف كلام بليغ محدداً عدداً من مكونات البلاغة توضح السبب فى ذلك وهى نشأة البلاغة ، ومعناها ، وأهدافها ، وآلاتها .

✲ بحث منشور بمجلة الأزهر الشريف عدد ربيع الأول سنة ١٤٠٣ هـ ديسمبر سنة ١٩٨٢ م وعدد جمادى الأولى وجمادى الآخرة سنة ١٤٠٣ هـ فبراير ومارس سنة ١٩٨٣ م .

وتحدث الفصل الأول عن : نشأة البلاغة وتطورها وأثر الطبع فى مرحلة النضج والازدهار ، وفى مرحلة القواعد .

وتحدث الفصل الثانى عن : معنى البلاغة مبيناً أن بلاغة الأدباء كانت أقرب ماتكون من معنى البلاغة لاعتمادها على الطبع .

وتحدث الفصل الثالث عن الهدف من دراسة البلاغة الدينى والأدبى والنقدى موضحاً أن بلاغة الأدباء التى اعتمدت على الطبع كانت أكثر تحقيقاً للأهداف السابقة من بلاغة المتأخرين التى تحقق الهدف الدينى وهو الوقوف على سمات النظم القرآنى وتذوق أسرار بلاغته وبعضاً من الهدف النقدى، وتقصر عن بلوغ الهدف الأدبى .

وتحدث الفصل الرابع عن : آلات البلاغة موضحاً أن هناك فرقاً كبيراً بين البلاغة ككلام بليغ وبينها كقواعد وضوابط من جهة آلات البلاغة، حيث تعتمد الأولى على الطبع الموهوب والثقافة المكتسبة، وتعتمد الثانية على دراسة علوم اللغة مع الذوق والحس .

وتحدثت الخاتمة عن أن بلاغة المتأخرين تمثل روح عصر وفكر جيل وأنها يمكن أن تنتج أطيب الثمار لو مزجت ببلاغة المتقدمين الأدباء — وأن ذلك أفضل سبيل لتجديد البلاغة وإصلاحها لجمعه بين العلم والفن، وبين العقل والذوق .

« وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .

تمهيد : يقول « سعد الدين التفتازانى » فى مطوله وفى خاتمة كلامه على الفصاحة والبلاغة : « فإن قيل: ليست البلاغة سوى المطابقة لمقتضى الحال مع الفصاحة وعلم البلاغة كافل باتمام هذين الأمرين فمن أتقنه وأحاط به لم لايجوز له أن يراعيهما حق الرعاية فيأتى بكلام هو فى الطرف الأعلى

من البلاغة ولو بمقدار أقصر سورة ؟ قلنا : لا يعرف بهذا العلم إلا أن هذه الحال تقتضى ذلك الاعتبار مثلا ، وأما الاطلاع على كمية الأحوال وكيفيتها ورعاية الاعتبارات بحسب المقامات فأمر آخر ، ولو سلم فإمكان الإحاطة بهذا العلم لغير علام الغيوب ممنوع ، وكثيراً من مهرة هذا الفن تراه لا يقتدر على تأليف كلام بليغ فضلا عما هو فى الطرف الأعلى »(١).

ويمكننا بشىء من التأمل فى جواب « سعد الدين التفتازانى » على السؤال المفترض السابق أن نستخلص عدداً من الأحكام منها :

١ — أن مسائل البلاغة فى علومها الثلاثة : المعانى والبيان والبديع لا تزيد عن كونها مقاييس يستعين بها الناقد فى أداء مهمته حول النص الأدبى — فهذه حال تستدعى التعريف ، وتلك أخرى تستدعى التنكير وهناك ثالثة تستدعى التجرد من التوكيد ، ورابعة يلزمها التوكيد على نحو ماروى الأصمعى : « كان أبو عمرو بن العلا وخلف الأحمر يأتيان بشارا فيسلمان عليه بغاية الإعظام ، ثم يقولان : يا أبا معاذ ، ما أحدثت ؟

فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له ، حتى يأتى وقت الزوال ، ثم ينصرفان ، فأتياه يوماً ، فقالا :

ماهذه القصيدة التى أحدثتها فى « ابن قتيبة » ؟ قال : هى التى بلغتكما — قالا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب . قال : نعم ، إن « ابن قتيبة » يتباصر بالغريب . فأحببت أن أورد عليه مالا يعرف ، قالا : فأنشدناها يا أبا معاذ فأنشدهما :

---

(١) سعد الدين التفتازانى : المطول على التلخيص ص : ٣٠ . ط أحمد كامل ١٣٣٠ هـ .

بكرا صاحبي قبل الهجير إن ذاك النجاح في التبكير[1]

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان - أن النجاح - بكرا فالنجاح ، كان أحسن ، فقال بشار : أنما بنيتها أعرابية وحشية - فقلت : إن ذاك النجاح - كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت : بكرا فالنجاح كان هذا من كلام المولدين ولا يشبه ذلك الكلام[2] ، ولا يدخل في معنى القصيدة ، قال : فقام خلف فقبل بين عينيـــه » ، وعلق صاحب الايضاح على ذلك بقوله : « فهل كان ما جرى بين خلف وبشار بمحضر من أبي عمرو بن العلاء وهم من فحولة الفن إلا للطف المعنى لذلك وخفائه[3] » .

٢ — أن تأليف كلام يتلاءم مع المقامات المناسبة له تمام الملاءمة بدون زيادة ولا نقصان عمل بالغ الصعوبة إن لم يكن مستحيلا .

٣ — أنه على فرض امكان حصول ما سبق من تأليف كلام بليغ متناسب مع المقام الذي قيل فيه من جميع الوجوه فان البلاغة التي تعد الوجه الأساسي لاعجاز القرآن والسمة العامة المميزه له لا يحيط بها من كل جهاتها ومن جميع جوانبها إلا المولى جل وعلا .

٤ — أن كثيرا من علماء البلاغة المحيطين بأسرارها لا يستطيعون تأليف كلام يمكن وصفه بالبلاغة .

---

(١) الهجير : من الزوال إلى العصر ، أو شدة الحر ، وقد أكد الشطر الثاني بأن لتقدم ما يشير إليه في الشطر الأول فنزل غير السائل منزلة السائل واخرج الكلام على خلاف مقتضى ظاهر الحال .

(٢) لأنه ليس فيه من دقة الاشارة إلى تنزيل غير السائل منزلة السائل كما في قوله : « أن ذاك النجاح » .

(٣) عبد المتعال الصعيدي — بغية الإيضاح ١ : ٤٨ . ٤٩ ط سادسة مكتبة الآداب — مصر .

ويعنينا فى مقامنا هذا من الأحكام السابقة التى استخلصناها من مقولة « سعد الدين التفتازانى » الحكم الرابع الذى يؤيده الواقع ويؤكده الحاصل من عدم مشاركة كثير من علماء البلاغة والباحثين فيها والدارسين لها فى صنع الأدب وتأليف البليغ من القول شعرا ونثرا كتابة أو حديثا لعدم تمكنهم من ذلك .

وبالتأمل فى الحكم السابق يثور بخاطرنا ذلك السؤال :

لماذا لا يتمكن كثير من علماء البلاغة والباحثين فيها والدارسين لها من الاسهام فى مجال الأدب الذى يعد حقل البلاغة وميدانها الذى تروح وتغدو فيه ؟

هذا ونستطيع العثور على اجابة ذلك السؤال لو أننا ألقينا نظرة حول هذه المكونات الأربع لبلاغتنا العربية .

أولا : نشأتها وتطورها .

ثانيا : معناها وتعريفاتها .

ثالثا : الهدف من دراستها .

رابعا : آلاتها وسبل تحصيلها .

الفصل الأول

نشأة البلاغة وتطورها

لا يوجد اختلاف بين البلاغيين والنقاد على أن البلاغة نشأت أول الأمر فطرية ساذجة لم [illegible]ها العرب فى كتب ولم يتلقوها عن أستاذ، وإنما كانت لهم بفطرتهم [illegible]فية وسليقتهم العربية الخالصة، وأكد ذلك ما نقلته إلينا كتب الأدب والنقد — فمن ذلك ما يروى عن طرفة من أنه استمع وهو لا يزال غلاما إلى المسيب بن علس ينشد أحدى قصائده وقد ألم فيها بوصف بعيره على هذا النحو:

وقد أتناسى الهم عند ادكاره بناج عليه الصيعرية مكدم(1)

فقال طرفة: استنوق الجمل.

وما يروى من أن «النابغة الذبيانى» كان يقوى فى شعره(2).

وتصادف أن قدم المدينة فعاب أهلها ذلك عليه، وقالوا لجارية رتلى فى قوله:

أمن آل مية رائح أو مغتــــد عجلان ذا زاد وغير مزود(3)

---

(1) الناجى: البعير السريع فى سيره — ومكدم: من الكدمة وهى الوشم والصيعرية: سمة خاصة بالنوق لا بالجمل، وتكون فى أعناق النوق

(2) الإقواء: المخالفة بين حركات الروى فى القصيدة.

(3) أراد النابغة بالزاد هنا: التوديع والتسليم

زعم البوارح أن رحلتنا غداً   وبذاك خبرنا الغراب الأسود(١)

فلما مدت صوتها بقافية البيتين أحس ما بهما من نشاذ ، ولم يلبث أن غير الروى المضموم فقال : وبذاك تنعاب الغراب الأسود . ومن ذلك الأسطورة التى تزعم أن امرأ القيس، وعلقمة بن عبدة تنازعا فى الشعر أيهما أشعر ، واحتكما إلى أم جندب زوجة امرىء القيس ، ولعلها كانت شاعرة ، فقالت : لينظم كل منكما قصيدة يصف فرسه فيها ، ولتلتزما وزنا واحدا وقافية واحدة فصنع كل منهما قصيدة بائية من وزن الطويل ، وأنشداها القصيدتين . فقالت لزوجها : علقمة أشعر منك ، قال : وكيف ؟ قالت : لأنك قلت :

فللسوط ألهوب وللساق درة   وللزجر منه وقع اخرج مهذب(٢)

فجهدت فرسك بسوطك فى زجرك ، ومريته فأتعبته بساقك ، وقال علقمة .

فادركهن ثانيا من عنانه   يمر كمر الرائح المتحلب (٣)

فأدرك فرسه ثانيا من عنانه لم يضربه بسوط ولم يتعبه(٤) .

وقريب مما سبق فى عدم الاكتفاء بالتأثر استحسانا أو استهجانا وسوق الدليل والعلة على هذا التأثر ما يروى كذلك من أن النابغة

(١) البوارح : طيور كانو يتطيرون بها ، ومثلها الغراب

(٢) الألهوب : اجتهاد الفرس فى عدوه وكذلك الدرة — والأخرج ذكر النعام وهو الظليم — ومهذب : مسرع .

(٣) الرائح : سحاب العشى — المتحلب المتساقط .

(٤) د . شوقى ضيف ـ النقد ص : ١٩ ، ٢٠ ط ثانية ـ دار المعارف عام ١٩٦٤ م .

كان يجلس فى سوق عكاظ يحكم بين الشعراء فى قبته الحمراء من الجلد، فأنشده الأعشى والخنساء وحسان، فقال للخنساء : لولا أن «أبا بصير — يعنى الاعشى أنشدنى لقلت : أنك أشعر الجن والإنس — فالأعشى عند النابغة أشعر - وتليه الخنساء - ثم يليها حسان - ويقال : أن حسانا سأل عما جعله يتخلف عن الخنساء ؛ فقال النابغة يعلل هذا - أوقالت الخنساء نقدا لبيته :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

قلت : «الجفنات» ، وهو جمع قله ، ولو قلت : «الجفان» لكان أفضل وقلت : «يلمعن» واللمعان يختفى ويظهر «ولو قلت «يشرقن» لكان أفضل» وقلت : «بالضحى» وكل شىء فى الضحى يلمع — ولو قلت : «بالدجى» لكان أفضل ، وقلت : «يقطرن» ولو قلت : «يجرين» لكان أفضل(١)

وتدلنا تلك النماذج على أن البلاغة فى ذلك العصر الجاهلى كانت تأخذ مظهرين عامين: مظهرا يشترك فيه العرب جميعا حين يستمعون إلى شعر شاعر فيقدرونه ويطربون له ويتقدم اشرافهم وأمراؤهم فيجيزون أصحابه وهم فى ذلك إنما يرجعون إلى ذوق أدبى راق ، ومظهرا ثانيا مقصورا على الاخصائيين من الشعراء الذين كانوا لايكتفون باظهار الاعجاب أو السخط وإنما يعمدون إلى ابداء الملاحظات والاراء على ما يسمعون إما من تلاميذهم أن كانوا معلمين ، وإما من عامة الشعراء أن كانوا نقادا محكمين(٢)

---

(١) سيد قطب — النقد الأدبى أصوله ومناهجه — ص : ١١٦ ط رابعة ١٩٦٦

(٢) د شوقى ضيف — النقد ص : ٢٢ ط ثانية — ويستشهد بالنماذج السابقة عدد من النقاد والبلاغيين المعاصرين على نشأة النقد الفطرية الساذجه — وعلى امتزاج النقد بالبلاغة عند النشأة - والباحث لا يرى =

. . . .

= فرقا بين البلاغة والنقد فى أى دور من الادوار ولا فى أى عصر من عصور ثقافتنا العربية ـ فقد نشآ معا ، وتطورا معا ، ويضطلعان بمهمة واحدة ، وهى تقويم الأساليب وتقييمها ، والراجح أن ماذهب إليه بعض النقاد من تحول النقد إلى بلاغة فى كتاب « الصناعتين » لأبى هلال العسكرى ، بالنظر إلى ما كان معروفا من وضوح الروح الأدبية فى آثار البلاغيين والنقاد المتقدمين ، أو بالحكم على تجربة معينة عاشها النقاد مع الادب الخالص كتجربة كل من الأمدى وعلى بن عبد العزيز الجرجانى .

فلما اضمحلت الروح الأدبية فى كتب البلاغة ، ولم تعد دراسة البلاغه من خلال موقف أدبى معين قيل : أن النقد تحول إلى بلاغة .

ويزيدنى اقناعا بعدم الفصل بينهما غير ما سبق ، أن عمل الناقد لا يتميز بشىء يجعله يستأهل أن يكون عملا آخر غير عمل البلاغى ، ويشهد على ذلك تراث البلاغة فى كل عصورها حتى فى طورها المتأخر الذى قسمت فيه إلى علومها الثلاثة — حيث تعد مقاييس البلاغة آلة من الآلات الهامة التى يتعامل بها الناقد مع النص الادبى — وكل من البلاغة والنقد يتعلق بموضوع واحد وهو الأدب .

ومن يتأمل مناهج النقد الثلاثة : الفنى الذى يعتمد على اللغة : نحوها وصرفها وبلاغتها ـ والتاريخى الذى يهتم ببحث العلاقة بين الأديب والمجتمع والعصر الذى يعيش فيه وتأثير كل منهما فى الآخر ـ والنفسى الذى يقوم على بحث علاقة النص بنفسية صاحبه وبنفسية الملقى إليهم ـ من يتأمل الدور الذى تؤديه كل من تلك المناهج لا يبدو له أدنى فرق بين البلاغة والنقد . وعلى هذا فان عددا من نظريات نقدنا الحديث يمكن ردها إلى أصول لها فى بلاغتنا المتقدمة .

راجع ذلك مفصلا فى كتابنا : المدخل إلى دراسة البلاغة ص : ٥٠ وما بعدها ط أولى ١٩٧٨ م ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة .

ويجىء الاسلام ومعه معجزته الكبرى : القرآن الكريم الذى كان له الأثر الكبير باعجازه اللغوى والبلاغى فى تغيير معتقدات الناس وسلوكهم فأقبلوا يعتنقون الدين الجديد ووقفوا ببلاغتهم الفطرية مبهورين أمام بلاغة القرآن العالية التى كان مثار دهشتهم لهـا أنها تألفت من حروف وكلمات اللغة التى استقامت لهم وجرت على ألسنتهم لكن فى تراكيب لم يألفوها وأساليب لم يعهدوها ، ويعبر فى الوقت نفسه عن بلاغة العرب الفطرية التى لم تكن عرفت المصطلحات بعد طريقا إليها قول الوليد بن المغيرة المخزومى لبنى مخزوم بعد أن استمع إلى آيات من سورة « حم » « فصلت » من الرسول ﷺ ، « والله لقد سمعت من محمـد آنفا كلاما ما هو من كلام الانس ، ولا من كلام الجن ، أن له لحلاوة ، وأن عليه لطلاوة ، وأن أعلاه لمثمر ، وأن أسفله لمغدق ، وأنه يعلو ولا يعلى عليه »(١) .

---

(١) محمد عبد الخالق عضيمة — مجلة كلية اللغة العربية بالرياض — العدد التاسع : ١٣٩٩ هـ — ١٩٧٩ م — وفى رواية أن « عتبة بن ربيعة » ذهب إلى النبى ﷺ ليحدثه فيما جاء به من خلاف قومه ، فتـلا عليه الرسول عليه الصلاة والسلام : « حم فصلت » إلى قوله تعالى : « صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فأمسك « عتبة » بيده على فى النبى ﷺ وناشده الرحم أن يكف ، وفى رواية : فجعل النبى ﷺ يقرأ وعتبة مصغ ملق يديه خلف ظهره معتمد عليهما ؛ حتى انتهى إلى السجدة فسجد ، وقام عتبة لا يدرى بم يراجعه ، ورجع إلى أهله ، ولم يخرج إلى قومه حتى اتوه فاعتذر لهم وقال : والله لقد كلمنى بكلام والله ما سمعت أذناى بمثله قط ، فما دريت ما أقول له .

انظر : القاضى عياض — إعجاز القرآن ص : ١٢٠ ، ١٢١ ط أولى ١٣٧٢ هـ — ١٩٥٣ م والخطابى ، بيان أعجاز القرآن ص٩٢-٩٤ ط أولى ١٣٧٢ هـ — ١٩٥٣ م مصر .

ويذكر الباحثون فى تاريخ البلاغة أن كتاب « مجاز القرآن » لأبى عبيدة معمر بن المثنى ، قد ألفه عقب سؤاله عن سر بلاغى يتعلق بإحدى آيات القرآن الكريم وهى قوله تعالى : « طلعها كأنه رءوس الشياطين »(١)

فى تشبيه طلع شجرة الزقوم برؤس الشياطين التى لم يرها الناس قط ، وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله ، فذكر « أبو عبيدة » فى بيان السر فى ذلك ، أن الله عز وجل يأتى فى هذا بكلامه على طريقة العرب فى كلامهم مثل قول امرىء القيس :

ايقتلنى والمشرف مضاجعى ومسنونة رزق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ، ولكن لما كان أمر الغول يهولهم أو عدوا به(٢) ـ ويقول « أبو عبيدة » : فاستحسن الفضل ذلك ،(٣) واستحسنه

---

(١) سورة الصافات : ٦٥ — الضمير فى (طلعها) يعود إلى شجرة الزقوم ، والطلع للنخلة فاستعير لما طلع من شجرة الزقوم من حملها ـ وقد شبه طلع شجرة الزقوم : برءوس الشياطين ، دلالة على تناهيه فى الكراهة ، وقبح المنظر ، وذلك لأن الشيطان مكروه مستقبح فى طباع الناس ، لا عتقادهم أنه شر محض لا يخالطه خير . . وهذا التشبيه وهمى ، لأنه لاوجود لرأس الشيطان إلا فى الاوهام ، ومن هنا كان بعيدا غريبا ، إذ لامزية فى بعد الشيء عن العيون على أن يكون وجود ممتنعا أصلا حتى لا يتصور إلا فى الوهم . د . أحمد موسى ـ البلاغة التطبيقية ص : ٥٤ ، ٥٥ ط أولى ١٩٦٣ مطبعة المعرفة .

(٢) شبه السهام ، أو الرماح المسنونة، بأنياب الاغوال فى الحدة ، وهو تشبيه بعيد غريب لأن المشبه به يندر حضوره إلى الذهن مطلقا وعلى أى حال ، لانه أمر وهمى . البلاغة التطبيقية ص : ٥٤

(٣) هو الفضل بن الربيع وزير الرشيد .

السائل، وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتابا فى مثل هذا وأشباهه وما يحتاج إليه من علمه، فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابى الذى سميته : المجاز فى القرآن »[١] .

ولم يكن يقصد « أبو عبيدة » بكلمة « المجاز » فى « مجاز القرآن » المعنى البلاغى الذى عرفه علماء البلاغة فيما بعد، وهو استعمال اللفظ أو التركيب فى غير المعنى الذى وضعته له العرب لعلاقة مع قرينة مانعه من ارادة المعنى الاصلى فى المجاز اللغوى، أو اسناد الشىء إلى ما ليس حقه أن يسند إليه فى المجاز العقلى أو الاسنادى — بل أن «أبا عبيدة» اطلق لفظ المجاز وأراد به معناه الواسع الذى عرفه من الوضع اللغوى، وهو المعبر والممر والطريق فكان معنى « مجاز القرآن » طريق الوصول إلى فهم المعانى القــــرآنية، يستوى عنده أن يكون طريق ذلك تفسير الكلمات اللغوية التى تحتاج إلى تفسير بالجملة الشارحة، أو بالمرادف المفسر من المفردات، وما كان عن طريق الحقيقة بمعناها . أو الطريق المجاز بمعناه عند البلاغيين[٢] .

وجاءت مؤلفات العلماء بعد ذلك فى اللغة والأدب تحمل فى ثناياها أسرارا بلاغية ممتزجة باللغة والادب كما فى « الكتاب لسيبويه المتوفى سنة ١٨٠ هـ » والبيان والتبين للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥، والكامل فى اللغة والادب لابى العباس محمد بن يزيد المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ .

وإذا كان علماء البلاغة لا يختلفون على أن كتاب « البديع لعبدالله بن المعتز » يمثل أول تاليف مقنن فى البلاغة حيث تحدث فيه صاحبه عن سبعة

---

(١) أحمد مصطفى المراغى — تاريخ علوم البلاغة ص : ٦٣ — ٦٥ ط أولى ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م .

(٢) د . بدوى طبانه — البيان العربى ص : ٢١، ٢٢ . ط خامسة — بيروت ١٣٩٢ — ١٩٧٢

عشر فنا من فنون البلاغة فإنهم يتفقون على أن القرن الرابع يعد أزهى فترة فى حياة بلاغتنا العربية حيث تناون البلاغة بالتأليف أدباء أصحاب طبع أدبى وحس بلاغى وذوق عربى صاف ، فكانت البلاغة فى مؤلفات أعلام هذه الفترة ممتزجة بالأدب وصادرة عن الذوق مما يكسب دارسيها ذوقا بلاغيا وحسا أدبيا ونقديا على نحو ما نقف عليه فى « عيار الشعر لابن طباطبا المتوفى سنة ٣٢٢ » ، « ونقد الشعر لقدامة ابن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ هـ » — و « الموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى المتوفى سنة ٣٧١ هـ » ، و« الوساطة بين المتنبى وخصومة لعلى بن عبد العزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ » ، و « الصناعتين لأبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ » .

كما لا يختلف البلاغيون على أن البلاغة بلغت رشدها وحققت أسمى غاياتها فى كتابى « عبد القاهر الجرجانى » « دلائل الإعجاز » ، « وأسرار البلاغة » حيث جمع فيهما بين العلم والذوق واستعان بأحدهما على الآخر ، فهو فى تحليله للشواهد والأمثلة إنما يأخذ بايدينا ليقفنا على الجمال بشعورنا وإحساسنا ، ثم يأخذ بأيدينا ثانية ليقنعنا بصدق شعورنا واحساسنا بالجمال، اقناع العقل والمنطق بعد اقناع الشعور والاحساس ، واطمئنان النفس والقلب (١) .

---

(١) د . مازن المبارك — الموجز فى تاريخ البلاغة ص : ١٠٢

ط ثانية — دار الفكر — دمشق ١٤٠٠ هـ — ١٩٧٩ م — ويحدثنا المرحوم الشيخ أحمد مصطفى المراغى عن فضل « عبد القاهر » على البلاغة فى كلامه على الطور الثانى منها الذى يمثله : عبد القاهر والزمخشرى وابن الاثير فيقول : « يبتدىء هذا الطور بابى بكر عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنه ٤٧١ هـ الذى جمع متفرقات هذا العلم ، وأقام بناءها على أسس متينة .

وحيث بلغت البلاغة قمة ازدهارها على يد « عبد القاهر » أدبا وذوقاً وعلماً ، فان عهداً من الاضمحلال أخذت تمضي فيه على يد علماء غير أدباء — ركزوا همهم في جمع قواعدها وتحديد مصطلحاتها على حساب النص العربي والذوق الادبي وقد بدأت هذه المرحلة « بنهاية الايجاز في دراية الاعجاز للرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ » وبلغت غايتها في « مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ » — الذي جرى الدرس البلاغي في فلكه فترة من الزمن غير قصيرة ، ويصور أحد الباحثين المعاصرين آثار تلك المرحلة على الأذواق والملكات وبواعث ذلك بقوله : « ومضت سنون ، وخلف بعد علماء البلاغة البلغاء خلف أضاعوا الأصالة ، ولم يدركوا مكانة الذوق

= وأملى فيه كتابيه أسرار البلاغة ، دلائل الاعجاز ، — واحكم بناءها بضرب الامثلة والشواهد ، مع التحقيق العلمي البديع الذي حاكه بلسان عربي مبين ، وقرن فيهما بين وضع القواعد الفنية ، وصوغها بالاساليب الادبية ، فجمع بين العلم والعمل ، اذ هو جد عليم بأن مسائل الفنون ان لم تؤيد بالامثلة والشواهد لا تتضح حق الوضوح ، ولا تتمثل في الاذهان تمام التمثيل .

وفي الحق أن كتابيه يعدان أول المؤلفات العلمية في هذه الفنون بما اشتملا عليه من تحقيق علمي للمباحث التي عرض لها ، مع اسلوب أدبي لم يعبه ذلك الملح المنطقي الذي خلط به كلامه ، ولم يطغ على اسلوبه كما طغى على أساليب المؤلفين بعده .. كذلك من الحق أن نقول : أن «عبد القاهر» بوضعه هذين الكتابين أنشأ منه البيان كاملا ، كما فعل «سيبويه» في الكتاب اذ أوجد به النحو كاملا ، وفعل الخليل من قبل ، اذ أوجد العروض علما تاما ، وكل من جاء بعد عبد القاهر فمن نور علمه قبس ، ومن ينبوع بحره اغترف ، وما زيد بعده من المسائل فقشور لا يضير العالم تركها . أحمد مصطفى المراغي — تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ص : ٢٠ ط أولى ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م الحلبي .

والحس فى البلاغة .. كان معظم هؤلاء من علماء البلاغة ، ولكنهم لم يكونوا بلغاء فى أنفسهم ، ولم يكونوا متذوقين ولا قادرين على اشعارنا بمواطن الجمال إذا هم تذوقوها ، فجردوا من آثار سلفهم ما يتصل بالأحكام والقواعد ، ثم صنفوا ذلك مستعينين عليه كل بحسب ثقافته بالفلسفة والكلام والمنطق ، وفرعوا وقسموا حتى جاءت البلاغة على أيديهم خالية فى معظم الأحيان مما به كانت بلاغه — جاءت مجردة من أسباب الحياة ، جافة لا روح فيها ، معقدة لا بيان يوضحها ، مقيدة بالحدود ، واذا هى غادرتها فالى جدل فلسفى لا أثر للبلاغة الحية فيه ، وكان مما زاد فى اساءتهم الى البلاغة اسهام أدباء عصورهم بما أمدوهم به من أدب هزيل ، وذوق سقيم — كانت البلاغة فنا يدرك بالحس الجمالى — أو كانت جمالا يدرك بالذوق ، فأصبحت على أيديهم أحكاما أو معارف صاغوها فى حدود وتعريفات .

لقد ابتدأ « الفخر الرازى » بتلخيص كتب الجرجانى تلخيصا أخذ يبتعد بالبلاغة عن النصوص ، ويقترب بها من الحدود والقوانين ، والأحكام والقواعد ، ثم استكملت تقعيدها على يد « السكاكى » فى كتابه « مفتاح العلوم » . . .

ولم يكن العلماء الذين جاءوا بعد السكاكى أقل منا شعورا بما فى كتابه من تعقيد ، لذلك فقد بادروا اليه يشرحونه ويوضحون ما استغلق منه ، الا أن هؤلاء العلماء كانوا متأثرين بأصل الكتاب وبمنهج صاحبه كما كان كل منهم متأثراً بثقافته الخاصة وطبيعتها فكان منهم الفقيه ، ومنهم المتكلم ، ومنهم النحوى ، وقد ظهر أثر ذلك كله فى شروحهم وتعليقاتهم ، وبقى « مفتاح العلوم » محور التأليف البلاغى ، فظهر حوله عدد كبير من كتب الشرح والايضاح والتلخيص والتهذيب »(١) .

---

(١) د. مازن المبارك — الموجز فى تاريخ البلاغة ص : ١٠٨ — ١١١

وندرك من خلال الجولة السريعة السابقة مع نشأة البلاغة وتطورها أن الطبع يقف وراء وصف كل مرحلة من مراحل البلاغة بما اتصفت به من : الذوق والفطرة مع التعليل أحيانا بعبارات موجزة — الى النضج الأدبى ، والبلاغى فى مرحلة الجمع بين العلم والذوق — ثم فى مرحلة القواعد الخالصة غير المدعمة بالأدب والذوق .

الفصل الثاني

معنى البلاغة وتعريفاتها

إذا كان الطبع الأدبي والحس البلاغي يمثل المكون الأول لمراحل البلاغة السابقة حضوراً وغيبة كما رأينا فإنه يعد أيضاً مكوناً أساسياً فى معنى البلاغة وما ذكر من تعريفات لها عند المتقدمين والمتأخرين .

فقد عرفها « أبو هلال العسكرى » من المتقدمين بأنها كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه لتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن(١).

وعرفها « عبد القاهر » مع الفصاحة والبيان والبراعة وما يشاكلها من ألفاظ مترادفة تدل على معنى واحد بأنها : « وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة ثم تبرجها فى صورة هى أبهى وأزين ، وآنق وأعجب وأحق بأن تستولى على هوى النفس ، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب ، وأولى بأن تطلق لسان الحامد ، وتطيل رغم الحاسد ، ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن يؤتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته ، ويختار له اللفظ الذى هو أخص به ، وأكشف عنه ، وأتم له ، وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية »(٢) .

---

(١) أبو هلال العسكرى : الصناعتين ص ١٦

(٢) عبد القاهر : دلائل الإعجاز ص ٣٩ ، ٤٠ ط ثانية تحقيق : أحمد مصطفى المراغى — المكتبة المحمودية التجارية .

وعرفها «أبو يعقوب السكاكى» من المتأخرين بأنها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته[١] .

وهى عند «ابن وهب» من المتأخرين أيضاً : «القول المحيط بالمعنى المقصود ، مع اختيار الكلام ، وحسن النظام وفصاحة اللسان»[٢] .

ويتفق مع التعريفات السابقة للبلاغة من حيث المضمون تعريف المتأخرين من البلاغيين لكل من : فصاحة المتكلم وبلاغته — ففصاحة المتكلم : ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح .

وبلاغة المتكلم : ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ[٣] .

وندرك من تعريفات البلاغيين متقدمهم ومتأخرهم لكل من الفصاحة والبلاغة أنها تلتقى حول مضمون واحد وهو صنع الأدب وتأليف الكلا البليغ وأن حدث اختلاف بينها من ناحية الشكل

بل أن من يتسأمل فى تعريف الأدب لا يلوح له أدنى فرق بينه وبين البلاغة .

فيقال فى تعريف الأدب : أنه المؤلفات التى تكتب لكافة المثقفين لتثير لديهم بفضل خصائص صياغتها صوراً خيالية أو انفعالات شعورية أو إحساسات فنية[٤] .

---

(١) السكاكى : مفتاح العلوم .

(٢) ابن وهب : البرهان فى وجوه البيان ص ١٢٩ تحقيق د/ حفنى شرف — مكتبة الشباب .

(٣) عبد المتعال الصعيدى : بغية الإيضاح ٢ : ٢٥ ، ٣١

(٤) د . محمد مندور — النقد المنهجى عند العرب ص ١٤ — دار نهضة مصر للطباعة والنشر .

وقيل أيضاً فى تعريفه إنه : التعبير عن تجربة شعورية فى صورة موحية — غايته الأولى: التصوير والتأثير — تصوير المشاعر والأحاسيس والوجدانات التى تخالج نفس الأديب ، والتأثير فيمن يطالعون عمله الأدبى ليشاركوه أحاسيسه، وتعيد نفوسهم تمثيل التجربة الشعورية التى عاناها(١) .

فلا أرى أن هناك فرقاً يذكر بين تعريفات الأدب من حيث المضمون وإن كان بينها اختلاف من ناحية الشكل .

وبعرض تلك التعريفات على مراحل البلاغية السابقة يتبين لنا أيضاً أن المرحلة التى تنطبق عليها تلك التعريفات وتنسجم معها هى المرحلة التى امتزجت فيها البلاغة بالأدب وصدرت عن الذوق فى مؤلفات علماء أدباء عالجوا فيها قضايا البلاغة ومسائلها من خلال آثار الأدباء المنظومة والمنثورة .

ونتبين فى الوقت نفسه أيضاً أن أبعد مراحل البلاغة السابقة عن التآلف مع تلك التعريفات هى المرحلة التى تحولت فيها البلاغة إلى قواعد جافة وقوانين منفصلة عن آثار الأدباء ، ويعنى ذلك أن البلاغة فى هذا الطور وفى تلك المرحلة تمضى فى طريق بعيد عن الطريق الذى يرسمه لها تعريفها .

(١) أحمد أحمد بدوى — من بلاغة القرآن ص ١٠٣ دار نهضة مصر .

الفصل الثالث

الهدف من دراسه البلاغه

معظم كتب البلاغة قديمها وحديثها تتناول الحديث عن أهداف البلاغة بشيء من التحديد ، ولعل أبرز كتاب يوضح أهداف البلاغة بصورة تعد أكثر شمولا وأدق تحديدا كتاب :

« الصناعتين لأبى هلال العسكرى » الذى يحدد للبلاغة فى مطلعه أهدافاً ثلاثة تقصد إليها وهى :

١ — هدف دينى : يتمثل فى تذوق البلاغة القرآنية والوقوف على أسرارها . حيث تعد الوجه الأظهر والأشمل لإعجاز القرآن .

٢ — هدف نقدى أو بلاغى : يتمثل فى التمييز بين الجيد والردىء من منثور كلام العرب ومنظومه .

٣ — هدف أدبى : يتمثل فى التدرب على صناعة الأدب وتأليف الجيد من المنثور والمنظوم .

ولما كانت البلاغة تحقق لدراسها الأهــــداف السابقة فقد جعلها « أبو هلال » أول وأهم العلوم التى ينبغى على المرء تحصيلها والوقوف عليها بعد معرفته بالله سبحانه وتعالى .

ويقول فى ذلك « اعلم علمك الله الخير ، ودلك عليه ، وقيضه لك ، وجعلك من أهله — أن أحق العلوم بالتعلم ، وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه .

علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذى به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى ،

الناطق بالحق ، الهادى إلى سبيل الرشد ، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة التى رفعت أعلام الحق ، وأقامت منار الدين ، وأزالت شبه الكفر ببراهينها ، وهتكت حجب الشك بيقينها ، وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ، وأخل بمعرفة الفصاحه لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ماخصه الله به من حسن التأليف ، وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الإيجاز البديع ، والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة ، وجلله من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمه وجزالتها ، وعذوبتها وسلاستها ، إلى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنها ، وتحيرت عقولهم فيها . وإنما يعرف إعجازه من جهة عجز العرب عنه ، وقصورهم عن بلوغ غايته فى حسنه وبراعته . وسلاسته ونصاعته[١] ، وكمال معانيه ، وصفاء ألفاظه — وقبيح لعمرى بالفقيه المؤتم به ، والقارىء المهتدى بهديه والمتكلم المشار إليه فى حسن مناظرته ، وتمام آلته فى مجادلته ، وشدة شكيمته فى حجاجه ، وبالعربى الصليب[٢] . ألا يعرف إعجاز كتاب الله تعالى إلا من الجهة التى يعرف منها الزنجى والنبطى[٣] أو أن يستدل عليه بما استدل به الجاهل الغبى ، فينبغى من هذه الجهة أن يقدم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم بعد توحيد الله ومعرفة عدله والتصديق بوعده على ما ذكره ، إذ كانت المعرفة بصحة النبوة تتلو المعرفة بالله جل اسمه » .

ويقول عن الهدف النقدى : « ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ومناقب معروفة ، منها : أن صاحب العربية إذا أخل بطلبه ، وفرط فى التماسه ،

---

(١) النصاعة : الوضوح .

(٢) الصليب : الخالص النسب .

(٣) واحد النبط بفتحتين ، وهم جيل من العجم كانوا ينزلون بالبطائح بين العراقيين .

ففاتته فضيلته ، وعلقت به رذيلة فوته ، عفى على جميع محاسنه ، وعمى[1] سائر فضائله ، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد ، وآخر رديء ، ولفظ حسن وآخر قبيح وشعر نادر وآخر بارد ، بان جهله ، وظهر نقصه » .

« ويقول عن الحيف الأدبي : « وهو أيضا إذا أراد أن يصنع قصيدة ، أو ينشيء رسالة ، وقد فاته هذا العلم ، مزج الصفو بالكدر ، وخلط الغرر بالعرر[2] ، واستعمل الوحشى العكر فجعل نفسه مهزأة للجاهل ، وعبرة للعاقل ، وإذا أراد أيضاً تصنيف كلام منثور . أو تأليف شعر منظوم ، وتخطى هذا العلم ساء اختياره له ، وقبحت آثاره فيه فأخذ الردىء المرذول ، وترك الجيد المقبول ، فدل على قصور فهمه ، وتأخر معرفته وعلمه — وقد قيل : اختيار الرجل قطعة من عقله ، كما أن شعره قطعة من علمه »[3] .

وإذا كانت الأهداف الثلاثة السابقة للبلاغة تتآلف مع تعريفاتها السابقة ، فإن مراحل البلاغة التى مرت بنا فى نشأة البلاغة لا تتساوى فيما بينها من حيث تحقيق الأهداف مجتمعة .

إذ تمكننا دراسة البلاغة حيث امتزجت بالأدب فى مؤلفات لأصحابها طبع أدبى وحس بلاغى من بلوغ الأهداف الثلاثة السابقة — بينما لا تبلغ بنا دراسة البلاغة على منهاجها المتأخر المعنى بالقاعدة المجردة عن النص

---

(١) أى أخفى .

(٢) الغرة : النفيس من كل شيء ، والعرة : القذر .

(٣) أبو هلال العسكرى : الصناعتين ص: ٧—٩ تحقيق : على البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم — ط عيسى الحلبى .

الأدبي أكثر من الوقوف على بعض أسرار النظم القرآني وعلى شيء من أسباب جودة الأساليب أو رداءتها أما التدريب على تأليف الكلام الجيد منثوره ومنظومه فلا يكفي مجرد الإلمام بقواعد البلاغة ووعيها لإدراكه وتحقيقه ولا سيما إذا كان العالم بتلك القواعد والملم بها غير مهيأ أصلا لتأليف الكلام وصنع الأدب ولم يرزقه الله حسا بلاغيا ، أو طبعا أدبيا .

كما نستخلص من الأهداف الثلاثة السابقة أن البلاغة والأدب والنقد آنذاك كانت متصلة ببعضها تتعاون جميعاً على إخراج نص أدبي جيد ، ولم يكن كل منها منفصلا عن الآخر ويدرس مستقلا بنفسه كما هو واقع الآن ، وذلك يعني في الوقت نفسه أن ما ينادي به عدد من الباحثين المعاصرين لتحقيق التكامل والتآلف بين البلاغة والأدب والنقد ، ودراسة الثلاثة ممتزجة ببعضها ليس أمراً بدعا ولا شيئا جديدا[1] وأنه كان في فترة من الفترات المنهاج الذي تمضي عليه البلاغة العربية .

---

(١) ومن هؤلاء المرحوم : « أحمد الشايب » الذي يرى أن علم البلاغة يجب أن يوضع وضعا جديداً يلائم ما انتهت إليه الحركة الأدبية في ناحيتيها : العلمية والإنشائية بأن دخل في بابين أو كتابين :

الأول : باب الأسلوب أو كتابه ، ويتناول دراسة : الحروف ، والكلمات ، والجمل ، والصور ، والفقرات ، والعبارات على أن تدرس درسا مفصلا دقيقا يعتمد على علوم : الصوت ، والنفس ، والموسيقى ، وما إليها مما يقوم الأسلوب على أتم صورة فنية أدبية — وفي هذا الباب أو الكتاب تدخل موضوعات : المعاني ، والبيان ، والبديع لا على أنها علوم مستقلة ، بل على أنها فصول في باب الأسلوب يتناول بحوثها كما يتناول غيرها .

أما الباب الثاني أو الكتاب الثاني : فيدرس الفنون الأدبية وقوانينها =

. . . .

— شعراً أو نثراً — يدرس أصول المقالة ، والخطابة ، والرسالة ، والجدل والوصف ، والرثاء ، والقصة والملحمة ، والتمثيلية ، والتاريخ ، والتأليف ، إلى غيرها من هذه الفنون الأدبية التى ذخرت بها الآداب العالمية ، وشرعت قواعدها ، ولم تحظ فى بلاغتنا النظرية إلا بإشارات خاطفة لا تعنى شيئاً .

أحمد الشايب — الأسلوب ص : ٣ ، ٤ ط سابعة
١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م

الفصل الرابع

آلات البــــلاغة

تناول عدد من المؤلفين فى البلاغة قديما وحديثا الحديث عن آلات البلاغة ، والعدة التى يتزود بها البليغ .

ويتفق معظمهم على أن تلك الآلات بصفة عامة تتمثل فى شيئين : موهبة أدبية ، وثقافة واسعة ويتفقون كذلك فى تفسير الموهبة وتحديد مصدرها لكنهم يختلفون بعض الشىء فى تحديد جوانب ومجالات الثقافة الواسعة وذلك يرجع لتنوع الثقافات واختلافها من عصر لآخر ومن جيل لغيره .

ولم تقتصر العدة السابقة على البلاغيين ، بل جعلها الأدباء عدة لهم ، والنقاد جعلوها عــــدة لهم أيضا بما يؤكد لنا أن علوم البلاغة والأدب والنقد التى فصلت عن بعضها فى الآونة الأخيرة ، يؤكد إلتحامها واجتماعها على هدف مشترك هذه الآلات المشتركة فيما بينها .

فبينما يعرض « ضياء الدين بن الأثير وابن سنان الخفاجى » للحديث عن تلك الآلات تحت عنوان : « صناعة تأليف الكلام(1) » يتناولها

---

(1) ابن الأثير : المثل السائر ط قديمة — القاهرة ١٣١٢ هـ ، والجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ص : ٦ ، ٧ تحقيق د/ مصطفى جواد و د/ جميل سعيد مطبعة المجمع العلمى العراقى ١٤٨٥ هـ — ١٩٥٦ م — وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ص : ٢٨٠ ، ٢٨١ تحقيق د/ عبد المتعال الصعيدى — مكتبة صبيح ١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م .

« أحمد الشايب » فى حديثه عن الأمور التى يلم بها الأديب ليقى نفسه شر الأخطاء فى التعبير(١) .

ويتناولها « أحمد بدوى » فى حديثه عن العلوم التى لها صلة بالنقد الأدبى(٢) .

ويتفق المؤلفون السابقون وغيرهم على ضرورة توفر الطبع للبليغ قبل الثقافة الواسعة ويصور « ابن الأثير » ذلك بقوله « وملاك هذا كله الطبع ، فإنه إذا لم يكن ثم طبع لا تغنى تلك الآلات شيئاً(٣) » .

ويوضح قيمة الطبع وأهميته لصانع الكلام فيصوره بالنار الكامنة فى الزناد ، ويصور العـــلوم التى يلم بها الأديب أو البليغ بالحراق(٤) ، والحديدة التى يقدح بها ، فإذا لم يكن فى الزناد نار لا يفيد ذلك الحراق ولا تلك الحديدة شيئاً(٥) .

فالبلاغة إذا عند « ابن الأثير » هى البلاغة التى تتفق مع تعريفات البلاغة وأهدافها السابقة وهى صنع المنثور والمنظوم من الكلام كما دلل « ابن الأثير » على أهمية الطباع وعظيم قيمتها بأنها هى التى تحدد الفن والنوع الأدبى الذى يميل إليه صاحبه وينتج فيه ، وأنه لولا اختلاف الطباع لما رأينا فى الشعراء من يجيد فى المديح دون الهجاء ، أو فى الهجاء دون المديح ، أو يجيد فى المراثى دون التهانى ، أو فى التهانى دون المراثى ،

---

(١) أحمد الشايب : الأسلوب : ١٧ ، ١٨

(٢) أحمد أحمد بدوى — من بلاغة القرآن ص : ١٩ — ٢٢

(٣) المثل السائر . ط قديمة — القاهرة ١٣١٢ هـ . ص : ٣

(٤) الحراق والحراق : موضع تقع فيه النار عند القدح .

(٥) ابن الأثير : الجامع الكبير ص ٦

وكذلك صاحب الطبع فى المنثور(١) . وقد تأثر بكلام « ابن الأثير » السابق من المعاصرين المرحوم : « أحمد حسن الزيات » فقرر أن البلاغة وهى تأليف الكلام البليغ تحتاج إلى : طبع موهوب وعلم مكتسب ، وأن الذى يحاول نيلها بإعداد الآلة وإدمان المزاولة وطول العلاج وهو لا يجد أصلها فى فطرته أضاع جهده ووقته فيما لا رجع منه ولا طائل فيه(٢) .

ويدلل « الزيات » على قيمة الطبع وأثره بما يرى من قلة عدد الخطباء على الرغم من كثرة المتحدثين ، وقلة البلغاء على الرغم من كثرة الكتاب ، وندرة الرسامين المهرة على الرغم من كثرة عدد الرسامين ، وندرة عدد الذين يؤلفون روايات غنائيـــة على الرغم من أن الموسيقيين يعدون بالآلاف فى كل أمة(٣) .

ثم يعرف « الزيات » « الطبع » ويبين أنه هبة ونعمة من الله فى قوله : « والمراد بالطبع : ملكات النفس الأربع التى لابد من وجودها فى البليغ ، ولا حيلة فى إيجادها لغير الخالق ، وهى : الذهن الثاقب ، والخيال الخصب ، والعاطفة القوية . والأذن الموسيقية(٤) .

هذا عن الطبع أما عن العلم المكتسب فإن الباحثين يختلفون فى تحديدهم للعلوم والثقافات التى يلم بها البليغ المؤلف للكلام وأهمية كل منها وذلك كما قلنا يرجع لاختلاف أهمية العلوم والثقافات من عصر لآخر .

فابن الأثير يرى أن مؤلف الكلام بعد أن يمنحه الله طبعا أدبيا

---

(١) المثل الثائر ص : ٤

(٢) أحمد حسن الزيات — دفاع عن البلاغة ص : ١١ مطبعة الرساله ١٩٤٥ م .

(٣) المرجع السابق ص : ١٢

(٤) المرجع السابق ص : ٣٠ ، ٣١

فى حاجة لأن يلم بكل فن ويقف على كل وجه من وجوه الثقافة مع التركيز على ثمانية وجوه هى :

معرفة علم العربية من النحو والتصريف ، وما يحتاج إليه من اللغة ، ومعرفة أمثال العرب وأيامهم ، والاطلاع على تأليفات المتقدمين المنثور منها والمنظوم ومعرفة الأحكام السلطانية من الامامة والامارة والقضاء والحسبة وغير ذلك ، وحفظ القرآن الكريم ، وحفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبى ﷺ . ومعرفة العروض والقوافى وذلك مختص بالناظم دون الناثر(١) .

وكذلك أشار « ابن سنان الخفاجى » من قبله فى نهاية كتابه « سر الفصاحة » الى أهمية تحصيل الوجوه السابقة بصفة خاصة ، والالمام بكل أنواع الثقافة بصفة عامة مع الطبع وعدم التكلف « وبالجملة ان مؤلف الكلام لو عرف حقيقة كل علم ، واطلع على كل صناعة لأثر ذلك فى تأليفه ومعانيه وألفاظه ، لأنه يدفع الى أشياء يصفها ، فاذا خبر كل شىء وتحققه كان وصفه له أسهل ، ونعته أمكن »(٢) .

وجاء علماء الأدب والنقد المعاصرون فلم يختلفوا على ضرورة المام مؤلف الكلام بشتى أنواع الثقافات ، أو الأخذ من كل فن بطرف على حد قول « ابن خلدون » وذلك من غير شك مع الطبع الموهوب — كما لم يختلفوا على ضرورة التركيز على علوم محددة وهى علوم اللغة التى نوعوها إلى : نحو وصرف واشتقاق وأصوات ومن لغة وفقة لغة ولهجات ومعاجم — وأضافوا الى تلك العلوم علوما يلم بها الأديب مثل علوم : النفس والأخلاق والجمال والاجتماع وهى علوم موجودة ضمن تراثنا العربى لكنها تدرس الآن

---

(١) الجامع الكبير ص : ٦ ، ٧

(٢) ابن سنان : سر الفصاحة ص : ٢٨٢

بشيء من التحديد وتحت عناوين مستقلة(١)، وقد حصر الأستاذ « أحمد حسن الزيات » العلوم التى ينبغى أن يلم بها طالب البلاغة فى ثلاث دوائر هى : اللغة والطبيعه والنفس بعد أن يأخذ من كل فن بطرف ، واراد باللغة : كل العلوم التى تعمل على سلامة الأسلوب وصفائة من نحو وصرف ولغة ومعان وبيان وبديع ، وبالطبيعة : علوم الجغرافيا والفلك والجيولوجيا وغيرها ، وبالنفس : علوم الأخلاق والجمال والاجتماع والنفس .

ويدعو « الزيات » طالب البلاغة الى أن يدرس هذه العلوم دراسة تمكن وتخصص .

وانه يقول عن المام طالب البلاغة بكل وجه من وجوه الثقافة بصفة عامه وعن تخصصه وتمكنه من دراسة علوم : اللغة ، والنفس ، والطبيعة بصفه خاصه : « آلة البلاغة الأخرى هى العلم بمعناه الأعم ، أو المعرفه بمدلولها الأشمل ، فالكاتب اذا كان ناقص العلم ، أو قليل الاطلاع يدركه الجفاف والنضوب ، فلا يكون فى آخر أمره الاسارد ألفاظ ومقطع جمل ، ذلك أن معارف الكاتب هى منابع انتاجه وألوان المعرفة له كألوان التصوير للمصور يجب أن تكون كلها على اللوحة قبل أن يقبض على الريشة ، والمعارف لا تستفاد الا بمواصلة الدرس ، وادمان القراءة ، وأقل ما يجب على طالب البلاغة درسه هو : اللغة ، والطبيعة ، والنفس .. لأنها فى رأينا أشبه بعلوم التخصص له ، والمفروض أن يخصها بطول النظر بعد أن يأخذ قسطه الأوفى من ضروب الثقافه(٢) .

---

(١) انظر : أحمد الشايب : الأسلوب ص: ١٧، ١٨ وأحمد أحمد بدوى : من بلاغة القرآن ص : ١٩ ، ٢٠ ، وفتحى فريه : المدخل الى دراسة البلاغة ص : ٢٩ — ٥٨

(٢) أحمد حسن الزيات : دفاع عن البلاغة ص : ٣٢ — ٤٠

ويرى الباحث أن تكليف طالب البلاغه الذى يؤهل لتأليف الكلام البليغ دراسة العلوم المتعلقه بالمجالات السابقة عند الزيات وهى : اللغة — والطبيعة — والنفس — دراسة تخصص وتعمق شيء فوق الطاقة وفوق الامكان — وأن المناسب والممكن أن يقتصر التخصص والتعمق على العلوم التى تؤثر مباشرة وعن قرب فى سلامة الأسلوب وصفائه وهى علوم اللغة أما ما عداها فيلم به الدراس الملـام معرفة وثقافة وسعة اطلاع لا الملـام تخصص وتعمق .

وذلك هو ما قرره يحيى بن حمزة العلوى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ فقد قسم العلوم التى يحتاج دارس البلاغة اليها الى ثلاث مراتب : علوم لا أثر لهـا ولا يفتقر اليها ، وعلوم لا بد منها وعلوم يستحسن الالمـام بها ، وأردا بالعلوم التى لا بد منها علوم اللغة والنحو والتصريف(١) .

وقد أغفل « العلوى » الطبع فلم ينص عليه ، واكتفى فقط بالحديث عن العلوم والثقافات اللازمة لدارسى البلاغه وقسمها من حيث الأهميه إلى المراتب السابقه ، وذلك يعود فى نظرنا الى غاية البلاغه وأهدافها فى نظره ، اذ تتمثل أهدافها عنده فى : الوقوف على الاعجاز البلاغى للقرآن الكريم ، وتمييز الفصيح وغير الفصيح من الكلام — أما صناعه تأليف المنثور والمنظوم من الكلام فلم يذكره ضمن أهداف البلاغة(٢) .

---

(١) يحيى العلوى : الطراز ١ : ٢٣ — ٢٦ ط المقتطف — ١٩١٤ م

(٢) يقول العلوى عن ثمرة علم البيان : « اعلم أنه يراد لمقصدين : المقصد الأول منهما : مقصد دينى وهو الاطلاع على معرفة أعجاز كتاب الله ، ومعرفه معجزة رسول الله ﷺ ، اذ لا يمكن الوقوف على ذلك الا باحراز علم البيان ، والاطلاع على غوره .

المقصد الثانى : مقصد عام لا يتعلق به غرض دينى ، وهو الاطلاع =

ولم يشر الى الطبع الذى يمثل العدة الأولى والركيزة الأساسيه لتأليف الكلام ، وذلك يدلنا على ان هناك فرقا بين البلاغة بمعنى تأليف الكلام البليغ وبينها بمعنى مسائل البلاغه وقواعدها التى تمكن صاحبها من تذوق أسرار البلاغه وتمييز الجيد والردىء من الكلام ، وللأولى منهاجها وآلاتها وعلماؤها ، وللثانيه أيضا : منهاجها وآلاتها وعلماؤها .

ويؤكد الحكم السابق وهو : أن هناك فرقا فى التراث البلاغى بين البلاغه ككلام بليغ ، وبينها كقواعد وضوابط لمعرفه أسرار الكلام البليغ — ما أشار به الخطيب القزوينى فى مطلع « الايضاح » من العلوم التى تحدد عيوب فصاحه الكلام .

كعلم النحو الذى يحدد : ضعف التأليف والتعقيد اللفظى ، وعلم الصرف الذى يحدد : مخالفة القياس ، وعلم اللغة الذى يحدد : الخطأ فى تطبيق الكلام على مقتضى الحال ، وعلم البيان الذى يحدد : التعقيد المعنوى ، والحس والذوق الذى يحدد : التنافر (١) .

وقد قلنا إن الوقوف على هذه العلوم يعين دارس البلاغة على تحديد العيب فى الأساليب وسبب خروجها من دائرة الفصاحة والبلاغة — لأن مجرد دراسة العلوم والتمكن منها لا يعين على تأليف كلام بليغ عند فقدان الطبع وانعدام الموهبة .

= على أسرار البلاغه والفصاحه فى غير القرآن فى منثور كلام العرب ومنظومه ، فان كل من لاحظ له فى هذا العلم لا يمكنه معرفه الفصيح من الكلام والافصح ، ولا يدرك التفرقه بين البليغ والابلغ الطراز ١ : ٣٢، ٣٣ .

(١) عبد المتعال الصعيدى — بغية الإيضاح ١/٣١ ط سادسة .

وبذلك نستخلص من هذا الفصل ما يلى :

١ — أن هناك فرقا بين البلاغة كفن يعتمد على الموهبة والثقافة الواسعة وينتهى بصاحبه إلى تأليف كلام بليغ وبينها كعلم لا يتجاوز قواعد البلاغة ولا يمكن صاحبه من صنع كلام .

٢ — أن حظ البلاغة الأولى يتمثل فى فترة النضج والازدهار لبلاغتنا العربية فى القرنين الرابع والخامس للهجرة ، وأن حظ البلاغة الثانية يتمثل فى فترة الجمود بدءا من القرن السادس وما يليه .

٣ — أن استمداد الدرس البلاغى من البلاغة الأولى يكسب الطالب نمو الذوق ومن البلاغة الثانية يكسبه تحديدا للأسباب وتمييزا للأسرار .

٤ — أن فقدان الطبع الأدبى يحرم كثيرا من دارسى البلاغة من جنى عدد من ثمار البلاغة وأهمها : الارتقاء بملكاتهم النقدية والتذوقية والعجز عن صنع كلام بليغ .

وبذلك ندرك صواب « سعد الدين التفتازانى » وما بدأنا به كلامنا من أن كثيرا من علماء البلاغة والماهرين فيها لا يقتدرون على تأليف كلام بليغ .

الخاتمة

ولانغلو فى القول ، ونشتط فى الحكم ، ونفعل كما فعل كثير من علماء البلاغة والنقد المعاصرين لنرمى بلاغة المتأخرين بالجفاف والجمود وننسب إليها : عقم الأذواق وفساد الطباع إلى غير ذلك من أوصاف تقضى بتجنبها واطراحها وإنما نرى أن بلاغة المتأخرين تمثل روح عصر وفكر جيل ، ولاتخلو من الإفادة من حيث يستعان بها على تقييد المطلق وحصر الشائع ، ولو مزجت ببلاغة المتقدمين أصحاب الأدب وأرباب الذوق لأثمرت أطيب الثمار ، حيث تكون قد جمعت بين العلم والفن وبين العقل والذوق .

وهذا خير سبيل لإصلاحها وتحقيقها لأهدافها .

السرعة وبلاغة العمل الأدبي

« الحمد لله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام، والصلاة والسلام على خاتم الرسل سيدنا محمد — ﷺ — وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان .

وبعـــد :

فلما كان الناس يعيشون في عالم تعد السرعة أوضح معالمه، وأهم خصائصه، وكانت مضار تلك السرعة على العمل الأدبي أكثر من منافعها ، وسيئاتها تفوق حسناتها حيث تهوى بقيمته ، وتفسد بلاغته ، وتذهب بآثاره كتبت هذه الصفحات في التنبيه إلى أفضال التأني والتروي ، والتحذير من عواقب التعجل والتسرع في صناعة العمل الأدبي عسى أن تعيد إليه مجداً كان يصاحبه ، وبلاغة كانت تاجه .

« وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب » .

العمل الأدبي والصناعات المختلفة :

إن الدور التي نقيم فيها لم تقم وحدها ، ولم ترتفع ذلك الارتفاع بين يوم وليلة ، ولكنها مرت في بنائها بمراحل متعددة ، وتعاقب عليها أفواج من العمال وأصحاب الحرف والصناعات المختلفة حتى وصلت إلى ما هي عليه وأصبحت صالحة للسكنى والإقامة ، وتتلخص تلك المراحل المتشابكة في : تحديد المكان واختياره — وإعداد شكل البناء وصورته — وتوفير المواد التي يعتمد عليها البناء — ثم قيام العمال والصناع على تجهيز البناء وإعـــداده .

وتستغرق كل مرحلة من المراحل السابقة قدراً من الوقت ، وتأخذ طاقة من الجهد لتنفيذها على الوجه السليم ، وعلى قدر الجهود المبذولة في إتمام المراحل تتحدد قيمة البناء المادية والمعنوية ، ومدى صلاحيته واستمراره .

فنحن نرى من وقت لآخر أبنية تنهار بعد أيام من الانتهاء منها ، بل أخرى تسقط قبل إتمامها والفراغ من بنائها .

ويكون ذلك لأسباب يأتي في مقدمتها من غير شك التسرع والعجلة وعدم التأني في تنفيذ المراحل السالفة وتوفية كل منها ما تحتاجه من وقت وجهد — وينطبق ذلك على كل الأعمال وجميع الصناعات .

والعمل الأدبي(١) من لحظة البدء فيه إلى حين الانتهاء منه ، أو من لحظة كونه فكرة عابرة إلى أن يصبح ثمرة ناضجة لا يختلف عن أي عمل ، ولا يفترق عن أية صنعة ، من حيث إنه يعتمد على عناصر ، ويمر بمراحل لابد أن ينال كل منها حقه الأوفى ، ويحصل على نصيبه الأوفر من الاهتمام والعناية بصبر وتثبت حتى يبلغ درجة النضج ، ويحظى بمنزلة من البلاغة .

وقد أجاد « ابن سنان الخفاجي » المتوفى سنة ٤٦٦ هـ في تحديد المراحل التي يمر بها كل عمل من الأعمال ومنها العمل الأدبي بخمسة أمور :

الموضوع ، والصانع ، والصورة ، والآلة ، والغرض .

---

(١) وهو التعبير عن تجربة شعرية في صورة موحية .
سيد قطب — النقد الأدبي — أصوله ومناهجه — طبعة رابعة — بيروت ١٩٦٦ م

وقرر — رحمه الله — أن أية صناعة لا تبلغ درجة اكتمالها إلا إذا تمثلت فيها الأمور السابقة آخذة نصيبها من العناية والرعاية .

ووضح — رحمه الله — مكانة كل عنصر مما سبق وأثره فى العمل الذى الذى ينتسب إليه ، وذلك بالتمثيل بصناعة النجارة .

فذكر أن : الموضوع : يماثل الخشب فى صناعة النجارة ، وأن الصانع يماثل : النجار .

وأن الصورة تماثل : مكان الجلوس إن كان المصنوع كرسياً .

وأن الآلة تماثل : المنشار والقدوم وما يجرى مجراهما .

وأن الغرض يماثل : الغاية التى صنع من أجلها الكرسى وهو الجلوس عليـه .

وبين « ابن سنان » منزلة هـذه العناصر من العمل الأدبى قياساً على ما سبق .

فموضوع الكلام والكتابة فى الألفاظ المؤلفة من أصـــوات وحروف .

وصانع الكلام هو : المؤلف الذى ينظم الكلام بعضه مع بعض — كالشاعر والكاتب وغيرهما .

والصورة : كالفصل للكاتب ، والبيت للشاعر ، وما جرى مجراهما .

والآلة هى : طبع هذا الناظم ، والعلوم التى اكتسبها بعد ذلك ، حيث لا يستطيع أن يعلم الشعر من لا طبع له وإن جهد فى ذلك ، لأن الآلة التى يتوصل بها غير مقدورة لمخلوق ، ويمكن تعـــلم سائر الصناعات لوجود ما يحتاج إليه من آلاتها .

وأما الغرض : فبحسب الكلام المؤلف، فإن كان مدحاً كان الغرض به قولا ينبىء عن عظم حال الممدوح ، وإن كان هجواً فبالضد — وعلى هذا القياس كل ما يؤلف(١) .

فنرى من كلام « ابن سنان الخفاجى » أن العمل الأدبى مثله مثل كل الأعمال لا يبلغ نضجه ، ولا يوصف بالبلاغة إلا إذا اعتمد على الأمور السابقة مستوفية نصيبها من التحقيق والتدقيق بصبر وطول أناة .

مع بشر بن المعتمر وأبى هلال العسكرى :

ونظراً لأهمية الصبر وطول الأناة فى صناعة الأدب وما لها من أثر بالغ فى تحقيقه لأهدافه ، ووصوله لغاياته فإنا رأينا كثيراً من علماء الأدب والبلاغة يرسمون السبيل ويحددون الضوابط التى يحتذيها أهل الأدب من من الشعراء والخطباء والكتاب وغيرهم حتى يكتمل عملهم ، ويخلو من المعايب والمآخذ ، ويقع من البلاغة موقعاً مقبولا .

فهــذا « بشر بن المعتمر(٢) » فى وصيته المعروفة لأهل الأدب يحدد ثلاث منازل لمن يقبل على الكتابة تعتمد كلها على التثبت والتروى وعدم التسرع .

---

(١) انظر : ابن سنان الخفاجى — سر الفصاحة — ص٨٢ وما بعدها — تحقيق : عبد المتعال الصعيدى — مطبعة صبيح ١٣٨٩هـ — ١٩٦٩م

(٢) المتوفى سنة ٢١٠ هـ .

المنزلة الأولى :

أن يمضى الكاتب فى كتابته عند حضور المعانى فى ذهنه ظاهرة مكشوفة وقريبة معروفة ، وانقياد الألفـــاظ له شريفة عذبة وفخمة وسهلة .

المنزلة الثانية :

أن يؤجل الكتابة إلى ساعات ينقدح فيها فكره ويتفتح ذهنه ،فتواتيه الفكر طائعة ، وتقبل عليه الألفاظ راضية ، وذلك عندما يجد نفسه مندفعاً للكتابة متكلفاً لمعانيها متعملا لألفاظها .

المنزلة الثالثة :

أن يتوجه إلى صنعة أخرى غير صنعة الكتابة يفرغ فيها جهده ، ويعطيها وقته واهتمامه إذا لم تسعفه القريحة ، ولم تواته السليقة فى وقت يشعر فيه بالراحة والهدوء جسمياً ونفسياً .

فلو تأمل الأدباء والكتاب المنازل السابقة ، وحاولوا السير على هديها الذى يعتمد كما ذكرنا على الصبر والروية لكان نتاجهم الأدبى فى معظمه بالغاً أهدافه محققاً لأغراضه كما تبدو فضيلة الصبر وعدم التسرع فى معالجة الكتابة واضحة فى وصية « بشر » التى يحذر فيها الكتاب من الشروع فى الكتابة فى أوقات التعب وساعات تكاثر الهموم والصبر والتأنى إلى أوقات يكون البال فيها مرتاحاً ، والفكر صافياً « خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهراً ،وأشرف حسباً ، وأحسن فى الأسماع ، وأحلى فى الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ،

وأجلب لكل عين وغرة ، من لفظ شريف ، ومعنى بديع ، واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة ، وبالتكلف والمعاودة(١) .

كما نجد الروية والتأنى فى نسج العمل الأدبى هى الزاوية التى يدور حولها كلام « أبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ » ، فى الباب الذى تحدث فيه عن : « صنعة الألفاظ وترتيب الألفاظ » ، وقد أفرد فيه فصلا عن فضيلة الشعر وما ينبغى استعماله فى تأليفه .

فبالنسبة للكتابة يدعو الكتاب إلى :

استحضار المعانى فى الذهن ، واختيار الألفاظ المناسبة لها ، والإقبال على الكتابة عند النشاط وراحة الجسم والنفس ، والإمساك عند التعب والملل ، وأن يراجع الكاتب ما كتبه عبارة عبارة ، فإذا بدا له لفظ أحسن من لفظ ، أو معنى بديع التقطه بسرعة قبل أن يفلت منه (إذا أردت أن تصنع كلاماً فأخطر معانيه ببالك ، وتنوق(٢) له كرائم اللفظ ، واجعلها على ذكر منك ، ليقرب عليك تناولها ، ولا يتعبك تطلبها ، واعمله مادمت فى شباب نشاطك ، وإذا غشيك الفتور ، وتخونك الملال فأمسك ، فإن الكثير مع الملال قليل ، والنفيس مع الضجر خسيس ، والخواطر كالينابيع يسقى منها شىء بعد شىء فتجد من الرى ، وتنال أذنك من المنفعة ، فإذا أكثرت عليها نضب ماؤها ، وقل عنك غناؤها ، وينبغى أن تجرى مع الكلام معارضة .

---

(١) راجع : البيان والتبيين — الجاحظ — تحقيق : عبد السلام محمد هارون طبعة رابعة — القاهرة ١٣٩٥ هـ — ١٩٧٥ م جـ ١ ص ١٣٥ وما بعدها .

(٢) أى تخير — من تنوق فى الأمر : تأنق فيه .

فإذا مررت بلفظ حسن أخذت برقبته. أو معنى بديع تعلقت بذيله وتحذر أن يسبقك فإنه إن سبقك تعبت فى تتبعه ، ونصبت فى تطلبه ، ولعلك لا تلحقه على طول الطلب ، ومواصلة الدأب ، وقد قال الشاعر :

إذا ضيعت أول كل أمر
أبت أعجازه إلا التواء(١)

وكذلك بالنسبة للشعر دعا « أبو هلال » الشعراء إلى مراعاة الضوابط والإشارات السابقة « وإذا أردت أن تعمل شعراً فأحضر المعانى التى يريد نظمها فكرك ، وأخطرها على قلبك ، واطلب لها وزناً يتأتى فيه إيرادها وقافية يحتملها ، فمن المعانى ما تتمكن من نظمه فى قافيته ، ولا تتمكن منه فى أخرى ، أو تكون فى هذه أقرب طريقاً وكلفة منه فى تلك ، ولأن تعلو الكلام فتأخذه من فوق فيجىء سلساً سهلا ذا طلاوة ورونق خير من أن يعلوك فيجىء كزا فجاً ، ومتعجداً جلفاً . فإذا عملت القصيدة فهذبها ونقحها بإلقاء ما غث من أبياتها ، ورث ورذل . والإقتصار على ما حسن وفخم بإبدال حرف منها بآخر أجود منه ، حتى تستوى أجزاؤها ، وتتضارع هواديها وأعجازها »(٢) .

وذكر « أبو هلال » أن عدداً من الشعراء قد احتذوا ذلك المنهاج ، ونفذوا تلك الضوابط فجاءت أشعارهم خالية من المعايب والمآخذ إلا فى النادر أمثال : زهير والحطيئة وأبو نواس والبحترى ومن حذا حذوهم ممن عرفوا بعبيد الشعر « وقد كان هذا دأب جماعة من حذاق الشعراء من المحدثين والقدماء منهم : زهير — كان يعمل القصيدة فى ستة أشهر ، ويهذبها فى ستة

---

(١) أبو هلال العسكرى ، الصناعتين ص١٣٩ — تحقيق : على البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم ط عيسى الحلبى .

(٢) الصناعتين ص ١٤٥

أشهر ثم يظهرها ، فتسمى قصائده الحوليات لذلك ، وقال بعضهم : خير الشعر الحولى المنقح ، وكان الحطيئة يعمل القصيدة فى شهر ، وينظر فيها ثلاثة أشهر ثم يبرزها ، وكان « أبو نواس » يعمل القصيدة ويتركها ليلة ثم ينظر فيها فيلقى أكثرها ويقتصر على العيون منها فلهذا قصر أكثر قصائده .

وكان البحترى يلقى من كل جانب قصيدة يعملها جميع ما يرتاب به فخرج شعره مهذباً ، وكان أبو تمام لا يفعل هذا الفعل ، وكان يرضى بأول خاطر فنعى عليه عيب كثير »[1] .

وهكذا نرى أن الضوابط السابقة لأهل الأدب من الكتاب والشعراء تعتمد فى تنفيذها على الصبر والروية وتعهد العمل الأدبى بالتأمل والمراجعة، والعودة إليه من لحظة لأخرى بالتهذيب والتنقيح حتى يبلغ درجة النضج، ويحقق الغرض الذى جاء من أجله مما يجعله جديراً بدخول دائرة البلاغة كما عرفها « أبو هلال العسكرى » بأنها : ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه كتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن »[2] .

أو كما عرفها الخطيب القزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ بأنها : « مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته »[3] .

---

(١) الصناعتين ص ١٤٧

(٢) الصناعتين ص : ١٦

(٣) عبد المتعال الصعيدى ، بغية الإيضاح ١ : ٢٦ ط سادسة — القاهرة .

مع «أحمد حسن الزيات»[١] :

ولما كان للصبر على صناعة العمل الأدبي الآثار الحميدة التي يتمثل أهمها في إلباسه كسوة البلاغة، وللتسرع وعدم التروي العواقب الوخيمة التي تنتهي به إلى عدم الاحترام وضياع الهيبة،فقد كان الأديب المرحوم «أحمد حسن الزيات» على حق وصواب عندما قرر أن السرعة ومعها الصحافة، والتطفل من أسباب التنكر للبلاغة وذلك في مطلع كتابه : «دفاع عن البلاغة» تحت عنوان : «أسباب التنكر للبلاغة» فقال : «السرعة، والصحافة، والتطفل هي البلايا الثلاث التي تكابدها البلاغة في هذا العصر»[٢] .

(١) ولد سنة ١٨٨٦ م، وتلقى العلم في الأزهر، واشتغل بتدريس اللغة العربية في المدارس الفرنسية، وحصل على أجازة الحقوق من باريس، كما درس اللغة العربية وآدابها بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وانتدب سنة ١٩٣٠ للتدريس بدار المعلمين العالية في بغداد، وعاد إلى مصر سنة ١٩٣٣ وأنشأ مجلة «الرسالة» عقب عودته، ثم انتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ورأس تحرير مجلة الأزهر، وانتقل — رحمه الله — في سنه ١٩٦٨ ومن أهم آثاره : وحي الرسالة في أربعة أجزاء — دفاع عن البلاغة — تاريخ الأدب العربي كما ترجم إلى العربية «آلام فرتر» لجيته — و «روفائيل» للامرتين .

د . بدوي طبانة — البيان العربي ص: ٣٩٨ ط رابعة، مكتبة الأنجلو المصرية ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م .

(٢) أحمد حسن الزيات — دفاع عن البلاغة ص : ٥ مطبعة الرسالة ١٩٤٥ م .

فأوضح «الزيات» أن خطورة السرعة ، كان على الفكر بصفة عامة ، وعلى البلاغة بصفة خاصة .

فكانت جريرتها على الفكر أن استحال تقدير القيم التى يحتاج وزنها إلى الروية والتأمل ، أو الأناة والصبر ، فظهر الخبيث فى صورة الطيب ، ودخل الردىء فى حكم الجيد ، وقيس كل عمل بمقياس السرعة لا بمقياس الجودة ! .

وأما جريرتها على البلاغة فإنها أصابت الأذهان فلم تعد تملك الإحاطة بالأطراف ولا الغوص فى الأعماق ، فجاء لذلك أكثر إنتاجها من الغثاء الذى لارجع منه ، أو من الزبد الذى لابقاء له ، كما أصابت الأفهام فلم تعد تصبر على معاناة الجيد من بليغ الكلام ، فكان من ذلك انكبابها على الأدب الخفيف الذى لاغناء فيه ولا وزن له ، وأصابت الأذواق كذلك ، فلم تميز الفروق الدقيقة بين الطعوم المختلفة ، فاختلط الحلو بالمر ، والتبس الفج(١) بالناضج .

وختم «الزيات» حديثه عن السرعة بأنها قد تقع خطأ فى موازين بعض النقاد فيحسبونها شرطاً فى حسن الإنتاج ، وربما عابوا الكاتب المروى بالإبطاء ، وغمزوه بالتجويد ، وسفهوا قول الحكيم : لا تطلب سرعة العمل واطلب تجويده ، فإن الناس لا يسألون فى كم فرغ ؟ ، وإنما يسألون عن جودته وإتقانه » .

---

(١) الفج : بكسر الفاء البطيخ الشامى الذى يسميه الفرس الهندى ، وكل شىء من البطيخ والفواكه لم ينضج فهو فج بالكسر .

الرازى — مختار الصحاح ص : ٤٩١ مادة = ف ج ج ط أولى ، بيروت ١٩٦٧

أما عن « الصحافة » ودورها فى أسباب التنكر للبلاغة فلأنها تقوم بعرض الأخبار العالمية ، وتسجيل الأحداث اليومية ، ونشر الثقافة العامة ، وهى فى كل أولئك تخاطب الجمهور فلا مندوحة لها عن التبذل والتبسط والإسفاف والمط مراعاة للموضوعات التى تكتب فيها ، والطبقات التى تكتب لها ، وللسرعة التى تعمل بها .

وأما « التطفل » فإنه يتمثل فى من يدعون صناعة الأدب ، ويضعون أنفسهم فى صفوف الأدباء بدون أن يطبعوا على الأدب ، أو يأخذوا بأسبابه(١) .

وواضح أن الأمور الثلاثة السابقة التى كانت وراء تدهور البلاغة فى العصر الحديث فى نظر المرحوم : « أحمد حسن الزيات » وهى : السرعة ، والتطفل والصحافة لم تخرج عما ذكره البلاغيون والنقاد العرب ، وإن كان وضعها تحت عناوين محدثة يوهم أنها إضافات جديدة ، فمشكلة عدم التروى فى صنع العمل الأدبى عبر عنها بالسرعة ومشكلة ممارسة أفراد لصناعة الأدب من غير استعداد وتهيؤ لها عبر عنها بالتطفل — ومشكلة دنو الأساليب وانحطاط شأنها عبر عنها بالصحافة — وإذا كانت الأمور السابقة قد وردت عند السابقين مع أمور كثيرة ، فقد عدها « الزيات » وحدها المسئولة عن تدهور البلاغة فى العصر الحديث .

وواضح أيضاً أنه لا يقصد البلاغة كعلم وقواعد ، وإنما يقصد الأعمال الأدبية التى تعد البلاغة أسمى غاياتها وأبعد مراميها .

---

(١) اقرأ : دفاع عن البلاغة ص : ٥ وما بعدها.

الخاتمة :ـ

ولما كان الصبر على صناعة العمل الأدبي يحقق له سمو المكانة وعميق الاحترام والتقدير مما يمكنه من طول البقاء ويزيد من إفادة الدارسين منه وكثرة ترددهم عليه ، فإن التسرع والعجلة يضعفان من مكانته ويقللان من هيبته مما يجعله قصير العمر وقليل الإفادة وضعيف التأثير(١)

وهناك لخطورة السرعة ما يعد أشد مما سبق ، وذلك هو ركود البحث الأدبي وجموده ، حيث يتحاشى الباحثون تناول موضوعات سبقت دراستها وإن كانت الدراسة السابقة لم تأت بفوائد ولم تضف جديداً ،

---

(١) ويقول «الزيات» في ذلك « دعك من هؤلاء وأولئك وانظر أنت في الأسلوب الذي ارتضيته لنفسك فتعهده بالتصحيح والتنقيح ما استطعت ولا تحفل بالزمن الذي تنفق ، فإنك تخلق الخلق ليعيش ، وتبدع الأثر ليخلد ، والزمن لا يبقى على عمل يتم بدونه ، وما العبقرية كما يقول «بوفون» إلا صبر طويل ، ولا عليك أن يقال عنك : إنك بطيء بكيء ، فإن زهيرا لم يعبه أحد بحولياته ، وابن المقفع لم يغض من عبقريته قلة مؤلفاته ، وأبو نواس شهر بالتخير والتفكر ، كما شهر « أبو العتاهية » بالارتجال والاقتضاب . فجاء شعره كله من حر الكلام ومختاره ... وجاء في اخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي قوله : تفاخر «ايرخس» الشاعر اليوناني و«أوميروس» ففخر « ايرخس » على « أوميروس » بكثرة الشعر وسرعة عمله وعيره ببطء عمله وقلة شعره فقال « أوميروس » : بلغنا أن خنزيرة بأنطاكية عيرت لبؤة بطول زمن الحمل وقلة الولد وافتخرت عليها بضد ذلك فقالت اللبؤة : « ولقد صدقت ! إني ألد الولد بعد الولد ، ولكنه أسد » فالروية والعمل والتهذيب والتأنق تشف عنها العبقريات الخالدات للعباقرة الخالدين »

أحمد حسن الزيات ـ دفاع عن البلاغة ص ٧٥ ، ٧٦

فلم يفد السابق ولم يبتكر اللاحق وأعتقد أن جريرة ذلك على الفكر خطيرة وعلى البحث شديدة .

وإذا كان صاحب العمل المتقن يلقى تقدير الناس وحبهم ويحظى باحترامهم وثنائهم فإنه من غير شك يكون أرفع قدراً ، وأعظم ثوابا وأجراً عند الله الذى لا يظلم الناس شيئا وصدق رسول الله ﷺ فى قوله : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه »

حول الوجهة النفسية فى الدرس البلاغى

تمهيد :

لقد تعالت أصوات كثيرة فى العصر الحديث تدعو إلى تطوير البلاغة وتنادى بتجديدها ، وتنمية علاقتها بالأدب والنقد ، وتوثيق صلتها بالمجتمع من خلال شعرائه وخطبائه وكتابه ، وقد بدا لنا أن دعوات أولئك الذين الذين ينادون بالتجديد تتمثل فى قالبين :

القالب الأول . مؤلفات بذاتها حول تجديد البلاغة ومنها : البلاغة العصرية لسلامة موسى ، ودفاع عن البلاغة لأحمد حسن الزيات ، وفن القول ، والبلاغة وعلم النفس ، والبلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها لأمين الخولى ، والأسلوب لأحمد الشايب وغيرها .

القالب الثانى : مؤلفات تتعلق ببعض علوم البلاغة وقضاياها ضمنها أصحابها كلاماً يدور حول تطوير البلاغة وتجديدها ومنها : النقد المنهجى عند العرب لمحمد مندور ـ والبلاغة : تطور وتاريخ لشوقى ضيف ،والنقد الأدبى الحديث لأحمد كمال زكى ـ والصبغ البديعى فى اللغه العربية لأحمد موسى ـ ـ والبيان العربى لبدوى طبانة ـوالصور البيانية ، والصور البديعية بين النظرية والتطبيق لحفنى شرف ، وغيرها .

وقد تعددت اتجاهات أولئك المنادين بالتجديد فهناك اتجـاه أدبى ، وآخر بيانى ، وثالث تربوى . ورابع نفسى وهو الذى يدور حوله كلامنا(١)

(١) راجع تفصيل الكلام عدم عن تلك الاتجاهات فى الصفحات : ٥ ومابعدها من كتابنا : المدخل إلى دراسة البلاغة ، توزيع مكتبة النهضة المصرية .

ستتناول بمشيئة الله : أعلام هذا الاتجاه ، وخلاصة آرائهم - وصدى ذلك المنهج فى التراث العربى والبلاغى - ورأينا فى ذلك مستمدين من الله العون والتوفيق .

الوجهة النفسية : أصحابها ومفهومها :

يرى أصحاب تلك الوجهة أن تطوير البلاغة وتجديدها يمكن تحققه بتنقيتها من المباحث الفلسفية والمنطقية التى أثقلت كاهلها ، ووصلها بالحياة والمجتمع والاستعانة فى دراستها بعلوم : النفس والأخلاق والجمال ، ومن أنصار تلك الوجهة : أحمد أمين ، والعقاد ، والرافعى ، وطه حسين ، وأمين الخولى ، وأحمد حسن الزيات ، ومحمد خلف الله وحامد عبد القادر ، وعز الدين إسماعيل وغيرهم .

أمين الخولى :

يرى المرحوم الشيخ أمين الخولى أن الاستعانة فى دراسة البلاغة بعلوم النفس يمكنها من تحقيق أهدافها ، ومن مظاهر تلك الاستعانة : أن تقدم بين يدى الدرس البلاغى مقدمة نفسية يعرف الدارس فيها شيئا عن الوجدان وعلاقته بمظاهر الشعور الأخرى من ناحية عمله الفنى ، ويعرف مثل ذلك عن الخيال ، والذاكرة والاحساس ، وعن الذوق ، كما يعرف الكثير عن أمهات الخوالج الإنسانية من حب وبغض ، وحزن وفرح ، وغيرة وانتقام ، وما إلى ذلك مما هو مادة المعانى الأدبية الكبرى فى الآداب الإنسانية كلها (١)

ويرى الشيخ / أمين الخولى كذلك أن الأخذ بالمنهج النفسى فى

---

(١) أمين الخولى - البلاغة وعلم النفس - بحث مستخرج من كلية الآداب ص : ١٤٦ - ١٤٨ المجلد الرابع .

دراسة البلاغة من أفضل السبل لتحقيق الهدف الديني من دراستها وهو : تذوق وتفهم أسرار القرآن البلاغية التي تعد الوجه الأساسي لإعجازه فيقول في ذلك : « وأبعد من ذلك وأعمق أن تقديرنا صلة البلاغة بعلم النفس سيهدينا في بحث مسألة قديمة جليلة الخطر كانت منذ أول الدهر محددة غاية البحث البلاغي وموجهه دراسته ، تلك هي مسألة إعجاز القرآن التي نعرف جميعا أنها أفعل ما أثر في البحث البلاغي ، وحياة البلاغة العربية ، ونقدر ما كان ولا يزال لها من خطر أدبي وخطر ديني . . . . إن هذا القرآن من حيث هو فن أدبي معجز ، ثم من حيث هو هدى وبيان لن يدار الأمر فيه إلا على سياسة النفوس ورياضتها . . فالنظر الصائب إليه ، والفهم الصحيح له لا يقوم إلا على إدراك ما استخدمه من ظواهر نفسية ونواميس روحية ، أدار عليها بيانه مستدلا وهاديا ومقنعا ومجادلا ومثيرا ومهددا ، فبالأمور النفسية لا غير يعلـــل إيجازه وإطنابه ، وتوكيده وإشارته ، وإجماله وتفصيله ، وتكراره من إطالته ، وتقسيمه وتفصيله ، وترتيبه ومناسباته ، وما قام من تعليل هذه الأشياء وغيرها على ذلك الأصل فهو الدقيق المنضبط ، وما جاوز ذلك فهو الادعاء والتحمل أو هو أشبه شيء به »(١) .

ونضم رأينا إلى رأي المرحوم الشيخ / أمين الخولي بالتقليل والتخفيف من الأبحاث المنطقية والفلسفية التي أثقلت كاهل البلاغة وجعلتها لا تؤدي الأهداف المنشودة من دراستها على الوجه اللائق ، لكننا نختلف معه فيما يأخذه على البلاغيين من عدم توفيقهم في تحديد السر البلاغي لتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وأبلغيه المجاز على الحقيقة والكناية على التصريح(٢)،

---

(١) أمين الخولي : مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب ص ١٩٩ — ٢٠٣

(٢) أمين الخولي : البلاغة وعلم النفس ١٤٧ — ١٥٢

ونرى أن البلاغيين كانوا موفقين فيما انتهوا إليه من تحديد الأسرار البلاغية لتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وأبلغيه المجاز على الحقيقة ، والكناية على التصريح . ومرد هذا التوفيق فى نظرنا إلى المنحى النفسى الذى أبرزوا به تلك الأسرار .

أحمد حسن الزيات

أما المرحوم الأستاذ « أحمد حسن الزيات » فإنه يعتمد فى الاستعانة بالمنهج النفسى فى دراسه البلاغــة على أن إذلك هو أضمن السبل لمعرفة الفروق الدقيقة بين أحوال المخاطبين حتى يجىء الكلام مطابقاً تمام المطابقة لمقتضى أحوالهم ومن قوله فى ذلك عن النفس التى جعلها أحد مجالات ثلاثة يجب على طالب البلاغة دراستها مع : اللغة ، والطبيعة « وأما دراسته للنفس فلأنها الينبوع الثر لما يزخر به الشعر والنثر من مختلف الغرائز والعواطف والأفكار والأحاسيس ، ومعرفة الينبوع فى مصـــدره ومداه شرط فى معرفة ما يصدر عنه على حقيقته وطبيعته وأثره وجوهره وإذا كان مدار البلاغة على مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال فإن إدراك الفروق الدقيقة بين الحالات المختلفة للمخاطب ، وصياغة الكلام على قوالب المقتضيات المناسبة للمخاطب ، وتصوير الأخلاق على نحو يغرى بالخير أو يحذر من الشر ، والقدرة على خلق الجمال فى الأسلوب ، أو التعبير عما يخلقه الجمال فينا من العواطف ، كل أولئك يستلزم دراسة خاصة لعلم النفس وعلم الأخلاق وعلم الجمال »[1] .

---

(١) أحمد حسن الزيات : دفاع عن البلاغة ص : ٣٩ ، ٤٠ مطبعة الرسالة ١٩٤٥ م

محمد خلف الله

كذلك يرى المرحوم الدكتور / محمد خلف الله أن هذا المنهج هو المنهج الأمثل لإعادة الازدهار إلى الآدب والنقد ، وفى اعتقادى أنه لن يتسنى التحرر من نير البلاغة الشكلية ، والعودة بالنقد العربى إلى وظيفته الجوهرية - من حسن فهم للنص الأدبى ، وخضوع لنواحى تأثيره ، ومشاركة لمنشئه فى تجربته ، وإدراك لما بين الأدب والحياة من صلات إلا على أساس من فلسفة ذوقية نفسية شاملة تنير السبيل أمام الناقد ، وتوسع آفاقه ، وتعيد للتجربة الإنسانية طابعها الأصيل »(١)

حامد عبد القادر

والمرحوم الدكتور / حامد عبد القادر من انصار ذلك الاتجاه ، ودعم الأدب والبلاغة بقواعد علم النفس قائلا فى ذلك : « فالأدب فن من الفنون التعبيرية الجميلة ، أو هو نوع من أنواع الإنتاج الإنسانى الراقى الذى يوصف بالجمال ، ويقصد منه التعبير عن مشاعر النفس ، والتأثير فى الوجدان والعاطفة والخيال . . . وهو فن من الفنون الراقية ، وكل فن هذا شأنه لا ينهض ولا يرقى إلا بالاستضاءة بنور العلم ، والاهتداء بأصوله وقواعده ومن أهم القواعد التى تعنى الأديب وتنير له السبيل قواعد علم النفس »(٢) .

---

(١) محمد خلف الله أحمد — من الوجهة النفسيه فى دراسة الأدب ونقده — المقدمة .

(٢) د/حامد عبد القادر - دراسات فى علم النفس الأدبى ص : ١٤-١٦ المطبعة النموذجية .

عز الدين إسماعيل

ويرى الدكتور « عز الدين إسماعيل » أن العلاقة بين الأدب وعلم النفس ينبغي أن تستمر ولا تنقطع لأن كلا منهما يؤثر في الآخر ويتأثر به قائلا في ذلك : « فالعلاقة بين الأدب والنفس لا تحتاج إلى إثبات ، لأنه ليس هناك من ينكرها ، إن النفس تصنع الأدب ، وكذلك يصنع الأدب ، النفس ، النفس تجمع أطراف الحياة لكي يصنع منها الأدب والأدب يرتاد حقائق الحياة لكي يضيء جوانب النفس ، والنفس التي تتلقى الحياة لتصنع الأدب هي النفس التي تتلقى الأدب لتصنع الحياة »(١) .

وبعد أن عرضنا فيما سبق من خلال فكر هؤلاء الأعلام وجهة نظرهم في الربط بين البلاغة وعلم النفس والأخذ بالمنهج النفسي في دراسة البلاغة نرى أن استعانة العلوم ببعضها أمر تقره حقائق العلم والثقافة فلا ضير من تلك الاستعانة إذا تحققت على النحو الذي يضمن للعلوم استقلالها ويحقق لها أهدافها الأساسية التي وضعت لها ولذا فإني اتفق مع المرحوم الدكتور / محمد مندور في أن تكون المعارف النفسية التي ينتفع بها في دروس البلاغة والنقد كالضوء الداخلي الذي يشع من نفس الناقد ، فيعينه على استخلاص أصالة الأديب الخاصة ، ولكن في غير إقحام لهذه المعرفة على الأدب ونقده ، لأن الأدب منبع لكل تلك المعارف »(٢) .

ومن مخاطر إطلاق العنان للعلاقة بين البلاغة وعلم النفس أن يفقد

---

(١) د / عز الدين إسماعيل — التفسير النفسي للأدب ص : ١٤—١٦ ط دار المعارف .

(٢) د / محمد مندور — النقد والنقاد المعاصرون ص : ١٠٤ ط نهضة مصر .

درس البلاغة قيمته ويذوب وسط نظريات علم النفس وقضاياه المتشعبة كما يقرر ذلك الدكتور «ماهر حسن فهمى فى قوله : « إن خطر هذه الدرسات إن استبدت بالنص الأدبى أنها تجعلنا ننسى أن تقويم العمل الأدبى من الناحيه الفنيه هو وظيفه النقد الأدبى ، حين نندفع فى تطبيقات لنظريات علم النفس ، أو تحليلات مبنيه على تلك النظريات تستوى فيها دلالة النص الجيد ودلالة النص الردىء ، ومن هنا وجدنا كل هذه الدراسات المستفيدة من علم النفس نظرية محضة لم تحاول أن تلج إلى النص فتبين ما فيه من إبداع وما فيه من إشراقة الجمال التى تحبب الفن إلى القلوب ، والتى هى سر خلود الفن ومصدر تأثيره »(١) .

---

(١) د/ ماهر حسن فهمى — المذاهب النقدية ص : ١٧٤ مكتبة النهضة المصرية .

المنهج النفسي في التراث البلاغي

وبالتحقيق يتبين لنا أن ما ينادى به أنصار الوجهة النفسية السابقون ويعدونه سبيلا ممهداً لإصلاح مسار الدرس البلاغى وتحقيقه لأهدافه ليس جديداً ، فإن بلاغتنا العربية لم تنعزل فى أى جانب من جوانبها عن النفس، بل كانت دائماً وثيقة العلاقة بالنفس فيما أثر لها من تعريفات ، وما وضع لها من قواعد ، وما أبرز من أسرار وسنرى أن علاقة البلاغة بالنفس تمثلت فى جوانب متعددة منها :

١ — معنى البلاغة :

كان حظ النفس واضحاً فيما أثر من تعريفات للبلاغة عند قدامى البلاغيين ومتأخريهم ، نلمس ذلك واضحاً فى تعريف العسكرى : « البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه لتمكنه فى نفسك ، مع صورة مقبولة ومعرض حسن »(١) .

وندرك مراعاة المتكلم البليغ لأحوال المخاطبين ونفوسهم فيما أثر عن حكيم الهند :

« أول البلاغة : اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة »(٢) .

---

(١) أبو هلال العسكرى — الصناعتين ص ٨ ط أولى
(٢) المرجع السابق ص ١٠

أما تعريف المتأخرين للبلاغة وتفسيرهم له فقد بنى على مراعاة أحوال النفس بحيث تشترك كل فنون البلاغة فى ذلك فعرفوا الكلام البليغ بأنه : «ماجاء مطابقا لمقتضى الحال مع فصاحته» وأبانوا عن الأحوال ومقتضياتها وصوغ الكلام وفقا لتلك المقتضيات بقولهم :«ومقتضى الحال مختلف ، فإن مقامات الكلام متفاوتة ، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد ، ومقام التقديم يباين مقام التأخير ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف ، ومقام القصر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ، ومقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكى يباين خطاب الغبى ، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام . . . وارتفاع شأن الكلام فى الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعدم مطابقته له ، فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب» وهذا أعنى تطبيق الكلام على مقتضى الحال هو الذى يسميه الشيخ «عبدالقاهر» بالنظم حيث يقول : « النظم تآخى معانى النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام »(١) .

٢ — الأسرار البلاغية للتراكيب وفنون البلاغة :

وذلك مجال ثان من المجالات التى يظهر فيها بوضوح العلاقة الوثيقة بين البلاغة والنفس — عند إبرازهم الأسرار البلاغية للتراكيب وفنون البلاغة — كإفادة التقديم التقوية والتأكيد من ناحية نفسية تتمثل فى سكون النفس واطمئنانها وتمكين المعانى منها لوصولها إليها بعد تشوق وإثارة . ويصور ذلك « عبد القاهر بقوله: « فإن قلت : فمن أين وجب أن يكون تقديم ذكر

---

(١) بغية الإيضاح ١ : ٢٦ ، ٢٧

المحدث عنه بالفعل آكد لإثبات ذلك الفعل له وأن يكون قوله : « هما يلبسان المجد » أبلغ فى جعلهما يلبسانه من أن يقال : « يلبسان المجد » فإن ذلك من أجل أنه لا يؤتى بالاسم معرى من العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه ، وإذا كان كذلك فإذا قلت : عبدالله فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه فإذا جئت بالحديث فقلت مثلا : قام أوقلت : خرج أوقلت: قدم فقد علم ماجئت به وقد وطأت له وقدمت الاعلام فيه فدخل على القلب دخول المأنوس به وقبله قبول المهيء له وذلك لا محالة أشد لثبوته وأنفى للشبهة وأمنع للشك وأدخل فى التحقيق . وجملة الأمر أنه ليس إعلامك الشيء « بغتة غفلا مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له ، لأن ذلك يجرى مجرى تكرير الأعلام فى التأكيد والأحكام؟ ومن ههنا قالوا إن الشيء إذا أضمر ثم فسر كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدم إضمار »(١) .

كما تتمثل تلك العلاقة بوضوح فى الأسرار البلاغية لمعظم فنون البلاغة كما فى « الالتفات » الذى يتمثل السر البلاغى له فيما يحدثه للنفس من ترويح ويدخله عليها من بهجة ، وإبعاده الملل والسأم عنها بنقل الكلام من أسلوب لآخر، ويصور «الخطيب» ذلك السر البلاغى للالتفات نقلا عن «الزمخشرى» بقوله : « واعلم أن الالتفات من محاسن الكلام، ووجه حسنه على ماذكر الزمخشرى هو أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب ، كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وأكثر إيقاظا للإصغاء من إجرائه على أسلوب واحد . وقد تختص مواقعه بلطائف كما فى سورة « الفاتحة » فإن العبد إذا افتتح حمد مولاه الحقيق بالحمد عن قلب حاضر ونفس ذاكرة لما هو فيه بقوله : « الحمد لله » الدال على إختصاصه بالحمد وأنه حقيق به وجد من نفسه

---

(١) عبد القاهر : دلائل الإعجاز ص ٩٧ ط ثانية تحقيق أحمد مصطفى المراغى .

لا محالة محركا للإقبال عليه » فإذا انتقل على نحو الافتتاح إلى قوله : «رب العالمين » الدال على أنه مالك للعالمين لا يخرج منهم شيء عن ملكوته وربو بيته قوى ذلك المحرك ، ثم إذا انتقل إلى قوله : « الرحمن الرحيم » الدال على أنه منعم بأنواع النعم : جلائلها ودقائقها تضاعفت قوة ذلك المحرك ، ثم إذا انتقل إلى خاتمة هذه الصفات العظام وهي قوله : « مالك يوم الدين » الدال على أنه مالك للأمر كله يوم الجزاء تناهت قوته ، ووجب الإقبال عليه وخطابه بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانه في المهمات »(١) .

وهكذا نرى أنه ما من فن بلاغى إلا يمس جانباً من جوانب النفس ويعالج حالة من أحوالها .

٣ — البيئة والطبع وأثرهما في اختلاف الأساليب :

وهذا الجانب من الجوانب التى تبرز بوضوح قوة العلاقة والارتباط بين البلاغة والنفس ويعنى : النظر في آثار الشعراء والكتاب والحكم عليها والتعرف على خصائصها من خلال الوقوف على : بيئاتهم والتعرف على ميولهم واتجاهاتهم ، وقد كان القاضى على بن العزيز الجرجانى من أبرز البلاغيين والنقاد القدامى الذين عالجوا ذلك الجانب في كتابه « الوساطة بين المتنبى وخصومه » .

إذ يقرر « القاضى الجرجانى » أن اختلاف أحوال الشعر من رقـــة

---

(١) بغية الإيضاح ١ : ١٥٦ — ١٥٨

وصلابة ، وسهولة ووعورة ترجع إلى اختلاف الطباع «فإن سلامة الطبع ودماثة الكلام بقدر دماثة الخلقة ، وأنت تجد ذلك ظاهراً فى أهل عصرك ، وأبناء زمانك ، وترى الجافى الجلف منهم كز الألفاظ ، معقد الكلام ، وعر الخطاب ، حتى إنك وجدت ألفاظه فى صورته ونغمته فى جرسه ولهجته »(١) .

وعلى هذا النهج يوضح « القاضى الجرجانى » العناصر اللازمة للنتاج الشعرى من : طبع وروية وذكاء ودربة ، ثم يفيض فى توضيح اختلاف الطباع وما يترتب على ذلك الاختلاف من أثر فى الشعر — فسلاسة اللفظ تتبع سلاسة الطبع ، ومن شأن البداوة أن تحدث شعراً جافيا باديا « وترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم ، والغزل المتهالك ، فإن اتفقت لك الدماثة والصبابة ، وانضاف الطبع إلى الغزل ، فقد جمعت لك الرقة من أطرافها »(٢) .

فهذا اللون من التفكير ، وذلك الجانب من علاقة البلاغة بالنفس الذى يبرزه « القاضى الجرجانى » يكاد يذكرنا المنزع السيكلوجى الحديث فى تحليل المواهب عامة ، ومواهب الأديب خاصة(٣) .

---

(١) القاضى الجرجانى : الوساطة ص ١٧ — ٢٤

(٢) المرجع السابق

(٣) د/محمد خلف الله — من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده ص ١٠٢ ، ١٠٣

٤ — التذوق الأدبى :

وهذا جانب من الجوانب التى توضح علاقة البلاغة بالنفس فى التراث البلاغى وذلك هو : التذوق الأدبى الذى ندركه بوضوح فى كتب البلاغة والنقد متقدمها ومتأخرها .

فالقاضى الجرجانى يورد النصوص العربية المتفق على جمالها ثم يعقب عليها بقوله : « تأمل كيف تجد نفسك عند إنشاده ، وتفقد ما يتداخلك من الارتياح ، ويستخفك من الطرب إذا سمعته »(١) .

وهذا أبو « الحسن الرمانى » الذى كان كثيراً ما يكشف لنا عن الأثر البيانى للتعبير القرآنى فى العواطف والنفوس ، وعدم اقتصاره على تحديد المعنى الحقيقى والمجازى للأسلوب القرآنى ، لكنه يبين فضل المجاز على الحقيقة وأثره فى الوجدان كقوله فى : « والصبح إذا تنفس »(٢) تنفس الصبح حقيقته : إبتدأ ، غير أن فى التنفس معنى الراحة ، كما أن فيه أمارة الحياة والحركة(٣) .

ولقد بلغت طريقة التذوق الأدبى والتأمل الباطنى والإهتمام بالنفس ومراعاة أحوالها المختلفة القمة عند « عبد القاهر » ، فالفكرة الرئيسة التى تبرز فى كتابه « أسرار البلاغة » والتى يصح أن نعدها نظرية فى الأدب هى : أن مقياس الجودة الأدبية : تأثير الصور البيانية فى نفس متذوقها ، والفكرة فى ذاتها فكرة إنسانية قديمة ؛ فقد تنبه الناس منذ العصور

---

(١) القاضى الجرجانى — الوساطة ص : ٣٧

(٢) سورة التكوير : ١٨

(٣) د/كامل الخولى : أثر القرآن فى تطور البلاغة العربية ص ١٠٦ — ١٠٨ ط أولى — والنكت للرمانى ص ٨

البعيدة إلى أن الأدب نوع من الإبانة ، وآلة للتواصل الفكرى ، وأن نجاحه يكون على قدر نفاذه إلى عقول سامعيه وقلوبهم ، وهذا هو ماقام به « عبد القاهر » فى فكرة التأثير الأدبى ؛ فقد عرضها أولا جرياً على نهج العلماء فى عرض نظرياتهم ، ثم رسم الخطة لتحقيقها ؛ فناقشها فى الجناس والحشو والطباق وما إليها ، ثم فصل القول فيها تفصيلا بارعاً فى أبواب : التشبيه والتمثيل والإستعارة ، وهذه النظرية التأثيرية فى جودة الأدب جزء من تفسير « سيكلوجى » أعم يطبع كتاب « الأسرار » كله بطابعه ، فالمؤلف لا يفتأ يدعوك بين لحظه وأخرى إلى تجربة الطريقه النفسانية التى يسميها المحدثون « الفحص الباطنى » وذلك أن تقرأ الشعر وتراقب نفسك عند قراءته وبعدها ، وتتأمل ما يعروك من الهزة والإرتياح والطرب والاستحسان وتحاول أن تفكر فى مصادر هذا الإحساس(١) .

إن المنهج النفسى فى تفهم بلاغة النص الأدبى وتذوق أسراره متميز تميزاً تاماً فى دراسة « عبد القاهر » حتى إن نظريات علماء النفس تجىء مؤيدة منهجه ومؤكدة مسلكه ، وإذا كان « عبد القاهر » لم يذكر شيئاً ذا قيمة عن العوامل التى تتعلق بالنفس وتؤثر فيها كالبيئة وتأثيرها على الذوق وغير ذلك مما عرض له من سبقه بتوسع كالقاضى الجرجانى وأبى هلال العسكرى فلعل السر فى ذلك أن تلك الدراسات أو كثيراً منها تناولها الجاحظ والآمدى والقاضى الجرجانى وغيرهم بالقدر الذى تحتمله طبيعة النقد والأدب ، وذلك فى دراستهم للشعر والشعراء ، واختلاف بيئاتهم وعصورهم وأحوالهم مما يجعل تناولها مرة أخرى نافلة لا مبرر لها ، ولا فضل وراءها(٢) .

---

(١) د / محمد خلف الله — من الوجهة النفسية ص ١٠٤ ، ١٠٥

(٢) د / محمد نايل — نظرية العلاقات ص ١٠١ دار الطباعة المحمدية .

أما تأكيد نظريات علماء النفس لمنهج « عبد القاهر » فيصوره ما ورد في مجلة الرسالة للأستاذ / أمين محمد عثمان تحت عنوان : « كنوز مطوية في البلاغة العربية » من قوله : « لا يسعك وأنت تجوب في ميدان الدراسات النفسية الحديثة ، وتخوض في بحر الثقافة الأوروبية الخضم إلا أن تعترف لعباقرة العرب بفضل السبق في هذا الميدان ، وتؤمن إيماناً بأن في التراث العربي العريق كنوزاً مطمورة تحتاج إلى من ينقب عنها ، ويخرجها من كهوف النسيان إلى عالم النور والعرفان، لقد كان علم النفس القديم يرى أن إدراكنا للعالم الخارجي يبدأ بالأجزاء والتفاصيل ، ثم يربط بين بعضها وبعض حتى يتألف الكل ، فأنت على هذا الزعم حينما ترى الشخص تبدأ في إدراك أجزائه أولا ، فإذا كررت النظر أدركت الشخص في جملته وهيئته ، وعلى هذا الأسلوب سرنا ولا زلنا نسير في تعليم القـــراءة والكتابة على الطريقة الأبجدية ، فنبدأ بتعليم الطفل حروفاً ثم كلمات ثم جملا .

فلما ظهر علم النفس الحديث ، وبزغت في أوائل القرن العشرين « مدرسة الصيغ الإجمالية » قلبت هذا الوضع رأساً على عقب ، وقامت بتجارب شتى دلت كلها على أن الإدراك عند الإنسان والحيوان يسير من المجمل إلى المفصل ومن الكل إلى الجزئي ، على العكس مما تقول التربية القديمة ، فلو أنك ألقيت نظرة على شخص أو على صورة لكان أول ماتراه من الشخص شكله العام ، وأول ما تأخذه عن الصورة انطباعا مجملا عاما ، فإذا أطلت النظر والتأمل ، أو دعتك ضرورة عملية إلى التحليل ، أخذت تفاصيل الشخص أو الصورة تثب إلى عينيك واحدة بعد أخرى ، وهذه النظرية على جدتها وقرب عهدها بالعصر الذي نعيش فيه ليست بالنظرية المبتكرة ، ولا هي بالرأي المخترع كما يدعي بعض علماء أوروبا المعاصرين .

فلقد سبق إليها « عبد القاهر الجرجاني » إمام البلاغة في عصره منذ تسعة قرون ، ولعلك تغرق في العجب إذا علمت أنه لم يخرم من هـــذه النظرية حرفاً واحداً وإليك ما ذكره في كتابه « أسرار البلاغة » في معرض حديثه عن التشبيه البليغ «إنا نعلم أن الجملة أبداً أسبق إلى النفوس من التفصيل.وأنك تجد الرؤية نفسها لا تصل بالبديهة إلى التفصيل ، ولكنك ترى بالنظر الأول الوصف على الجملة ، ثم ترى التفصيل عند إعادة النظر ، ولذلك قال العرب : « النظرة الأولى حمقاء » وقالوا لمن يصف الشيء على غير حقيقته : فلان لم ينعم النظر ولم يستقص التأمل ، وهكذا الحكم في السمع وفي غيره من الحواس ؛ فإنك تتبين من تفاصيل الصوت بأن يعاد عليك حتى تسمعه مرة ثانية ما لم تتبينه بالسماع الأول، وتدرك من تفصيل طعم المذوق بأن تعيده إلى اللسان ما لم تعرفه بالذوق الأول ، وبإدراك التفاصيـــل يقع التفاضل بين راء وراء وسامع وسامع وهـكذا يصل « عبد القاهر » إلى قوله :

« والأمر في المعقولات كذلك ، تجد الجملة أبداً هي التي تسبق إلى الأوهام ، وتقع في الخواطر أولا ، وتجد التفاصيل مغمورة بينها ، وتراها لا تحضر إلا بعد إعمال الروية والاستعانة بالتذكر »(١) .

والزمخشري في كشافه الذي يعد تطبيقاً لنظرية النظم عند « عبدالقاهر» كان جلياً في إيحاءات الألفاظ والتراكيب وظلالها المعنوية والنفسية كتوضيح الفرق بين « كسبت » و « اكتسبت » في قوله تعالى : « ... لها

---

(١) د/ محمـــد عبد المنعم خفاجي — عبد القاهر والبلاغة العربية صـ ١٤ ، ١٥ ط أولى ١٩٥٢ م

ما كسبت وعليها ما اكتسبت . . »(١) فى أن الكسب مختص بالخير والاكتساب مختص بالشر ، وتعليل ذلك بأن فى الكسب اعتمالا وأن الشر لما كانت النفس تشتهيه وتنجذب إليه كانت فى تحصيله أعجل وأجد فجعلت لذلك مكتسبة فيه ولما لم تكن كذلك فى باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال(٢).

وقد تتبع الدكتور « مصطفى الصاوى الجوينى » هذه المواقف وتلك اللمحات النفسية التى غنى بها كشاف الزمخشرى(٣) .

وهكذا نرى أن كتب البلاغة قديمها ومتأخرها قد راعت أحوال النفس فى توضيحها لأسرار بلاغة النصوص والتراكيب التى حفلت بها ، ولنقرأ ماساقه يحيى بن حمزة العلوى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ وهو من المتأخرين عن « الائتلاف » لنقف فى تحليله لشاهد هذا الفن على مراعاة حال النفس فقد عرف «الائتلاف» بأن يكون الكلام مشتملا على أمرين فيقرن بكل واحد منهما ما يلائمه من حيث كان لاقترانه به مزية غير خافية » .

ومثل له بقول المتنبى :

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
ووجهك وضاح وثغرك باسم
وقفت وما فى الموت شك لواقف
كأنك فى جفن الردى وهو نائم

---

(١) سورة البقرة : الآية الأخيرة

(٢) الزمخشرى : الكشاف ١ / ١١٢

(٣) انظر : د/ مصطفى الصاوى الجوينى — منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن وبيان إعجازه ط دار المعارف .

فإن عجز كل واحد من البيتين ملائم لكل واحد من صدريهما وصالح لأن يؤلف معه، لكنه اختار ما أورده في البيت لأمرين: أولا لأن قوله: «كأنك في جفن الردى وهو نائم»، إنما سيق من أجل التمثيل للسلامة في موضع العطب فجعله مقررا للوقوف والبناء في موضع يقطع على صاحبه بالموت أحسن من جعله مقرراً لثباته في حال هزيمة الأبطال، وثانيا: لأن جعل قوله: «ووجهك وضاح وثغرك باسم» تتمة لقوله: «تمر بك الأبطال» أحسن من جعله تتمة لقوله: «وقفت وما في الموت شك لواقف»، لأن الإنسان في حال الهزيمة يلحقه من ضيق النفس وعبوس الوجه ما لا يخفى، فلهذا ألصق كل واحد منهما بما يكون فيه ملاءمة وحسن انتظام من أجل المبالغة في المعاني، ويحكى أنه لما أنشد المتنبي سيف الدولة هذه القصيدة نقم عليه هذين البيتين فقال له: هلا جعلت عجز أحدهما عجزاً للآخر فأجابه بما ذكر من بلاغة المعنى إذا كان على هذه الصفة، فاستحسن سيف الدولة ما قاله عن ملاحظة المعاني التي هي مغازيه في قصائده وزاد في عطيته(١).

● — الألفاظ والحروف:

وحيث تتكون التراكيب من ألفاظ وحروف فإن علاقة البلاغة بالنفس تتمثل أيضاً بوضوح في الألفاظ وحروفها وذلك في حسن التلاؤم بينها وبين المعاني المقصودة، والدقة في اختيارها لتوافق الأحوال النفسية للمخاطبين ويصور «السيوطي» هذه العلاقة بقوله: «فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع...

وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث

---

(١) يحيى العلوي: الطراز ٣/١٤٧، ١٤٨ ط المقتطف ١٩١٤ م

المعبر بها عنها فيعدلونها بها ، ويحتذونها عليها ، وذلك أكثر مما نقدره . . . من ذلك قولهم : خضم وقضم ، فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء وما كان من نحوها من المأكول الرطب ، والقضم لأكل اليابس نحو : قضمت الدابة شعيرها ونحو ذلك... ومن ذلك قولهم: النضح للماء ونحوه، والنضخ أقوى منه ، قال الله تعالى : « فيهما عينان نضاختان »[1] فجعلوا الحاء لرقتها للماء الخفيف ، والخاء لغلظها لما هو أقوى منه »[2] .

ويجعل أحد الباحثين ذلك خاصية فريدة للغتنا العربية ويطلق عليها « الجوانية » أي إدراك معنى الأشياء بوعى « الإنية » وبنوع من الكشف الداخلي دون حاجة إلى الوسائل الخارجية كاللفظ وما إليه ، وأن تعريف البلاغة في العربية تعريف « جوانى » وهو الوصول إلى كنه ما في القلب »[3] .

كذلك تتضح تلك العلاقة في الحركات والسكنات التي تتألف منها التفعيلات العروضية ، فقد روعى في بناء تلك التفعيلات ملاءمتها طولا وقصراً للأغراض المقصودة ، وقد توصل « الخليل » إلى ذلك بعد عملية استقراء وجد فيها أن الشعراء حين يعبرون عن حالات الحزن إنما يعبرون عنها في الاوزان الطويلة ، وأنهم حينما يعبرون عن حالات السرور والبهجة يختارون لذلك الأوزان القصيرة كابن الرومي لما رثا ابنه محمداً رثاه بأبيات من بحر الطويل « فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن » [مكررة] فقال :

---

(١) سورة الرحمن : ٦٦

(٢) السيوطي : المزهر ١ : ٥٠ تحقيق : محمد أحمد جاد المولى وآخرون

(٣) د/ عثمان أمين : المحاضرات العامة للموسم الثقافي الثاني ص : ١١٠ — ١١٣

بكاؤكما يشفي وإن كان لا يجدي
جودا فقد أودى نظير كما عندي

ألا قاتل الله المنايا ورميها
من القوم حبات القلوب على عمد

على حين شمت الخير من لمحاته
وآنست من أفعاله آية الرشد

طواه الردى عني فأضحى مزاره
بعيداً على قرب قريباً على بعد[١]

خاتمة :

ومن كل ما سبق يتضح لنا أن الاتجاه النفي فى تدريس البلاغة لم يكن جديداً عليها ، وأن صلة البلاغه بالنفس قديمه وتشمل التراث البلاغى متقدمه ومتاخره وتتمثل فى جوانب متعددة منها : معنى البلاغه ، والبيئه والطبع ، والاسرار البلاغيه ، والتذوق الادبى ، والألفاظ والحروف وغيرها وقد شهد بقدم تلك العلاقه دعاة ذلك الاتجاه أنفسهم فالمرحوم « أمين الخولى » يذكر فى فن القول » : « أن البلاغيين القدامى حاولوا على قدر طاقتهم الربط بين البلاغة وعلم النفس »[٢] ومحمد خاف الله « ذكر ما سبق من أن طريقة التذوق والتأمل الباطنى بلغت القمه لدى « عبد القاهر » فى « أسرار البلاغة »[٣] .

---

(١) د/ عز الدين إسماعيل — التفسير النفسى للأدب ص : ٨٠ دار المعارف ١٩٦٣ م

(٢) أمين الخولى : فن القول ص : ٢٠ ط الحلبى

(٣) د/ محمد خلف الله من الوجهه النفسية ص : ٩٢ — ٩٤

وإنى أوافق دعاة هذا المنهج على مايضيفه لدرس البلاغة من حيوية وحسن علاقة بالأدب واتصال بالمجتمع على أن تتم تلك العلاقة بالقدر الذى يحفظ للبلاغة كيانها ، ولا يزج بها فى خضم الأبحاث والدراسات النفسية على نحو مايراه المرحوم «سيد قطب» ، من أن الإسراف فى استخدام المنهج النفسى فى الدراسات الأدبية والبلاغية يحول البلاغة والأدب إلى دروس فى علم النفس ولما كان الحكم على أى اتجاه يتأتى على ضوء مايحرزه من نجاح ويحققه من فوائد فإن الاتجاه النفسى إن أفادنا فى وصل البلاغة بالحياة والمجتمع ، وتنمية علاقتها بالعلوم والثقافات فإنه لايفيدنا بنفس القدر فى تحقيق الأهداف المنشودة للدرس البلاغى من : الموازنة بين الأساليب ، والتمييز بين الجيد منها والردىء ، والوقوف على أسرار الأعجاز البلاغى فى كلام رب العزة وهى الأهداف التى اصطلح علماء البلاغة على تسميتها بالأهداف : الدينية ، والأدبية ، والنقدية وعلى الله قصد السبيل .

المدخل إلى علم البيان(١)

بين عبد القاهر والمتأخرين

الحمد لله الذى خلق الإنسان وعلمه البيان والصلاة والسلام على أفصح العرب سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه ومن اتبعه .

وبعـــد :

فإن مقدمة علم البيان ، أو مبحث : الدلالات عند المتأخرين من علماء البلاغة كان من أبرز المباحث التى استشهد بها جمهرة من النقاد على عقم بلاغة المتأخرين وجمودها ، وعلى الرغم من ذلك فإنه ماينفك مدخلا لكثير من دارسى العربية وبلاغتها إلى علم البيان مما دفعنى إلى التوجه لدراسته ، والوقوف على منزلته من البلاغة .

أهو أصيل يجب أن يبقى أم دخيل يجب أن يعزل ويستبعد ؟

وذلك من خلال هذا البحث الذى يشتمل على :

مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة ،

فتبرز المقدمة الهدف الذى أعد له البحث .

ويوضح التمهيد : معنى البيان فى اللغة والبلاغة ، وموقف علماء البلاغة والنقد المعاصرين من : مبحث الدلالات .

ويوضح الفصل الأول : أقسام الدلالات ، ومنزلتها البلاغية .

---

(١) بحث منشور بمجلة « الدارة » السعودية عدد شوال ١٤٠١ هـ

ويناقش الفصل الثانى : قضية الدلالة الوضعية بـــين عبد القاهر والمتأخرين .

ويناقش الفصل الثالث : منزلة التشبيه من البيان بين : عبد القاهر والمتأخرين .

وتبرز الخاتمة : أهم النتائج المستخلصة من البحث .

« وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب »

تمهيد :

البيان فى اللغة والبلاغة

يراد بالبيان فى اللغة : الوضوح والظهور : ففى لسان العرب بان الشيء : اتضح فهو بين ، واستبان الشيء : ظهر ، والبيان الفصاحة واللسن وكلام بين : فصيح ، وفلان أبين من فلان أى أفصح منه وأوضح كلاما، ورجل بين : فصيح ، والجمع : أبيناء البيان : إظهار المقصود بأبلغ لفظ وهو من حسن الفهم وذكاء القلب مع اللسن ، وأصله الكشف والظهور(١) .

وقد وردت كلمة البيان فى أكثر من موطن من آيات القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى « الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان »(٢)

وقد فسر الزمخشرى البيان هنا بأنه : المنطق الفصيح المعرب الذى يتميز به الإنسان عن سائر الحيوان(٣) وقوله تعالى أيضاً فى سورة القيامة « ثم إن علينا بيانه »(٤) ويفسرها الزمخشرى كذلك بالتوضيح والاظهار إذا خفى على الرسول ﷺ شىء من معانى القرآن(٥)

أما فى البلاغه ومنذ بدأ التأليف فيها إلى الآن فإن كلمة البيان قد فسرت تفسيرين كل منهما فيه معناها اللغوى السابق أى الوضوح والظهور .

التفسير الأول : الإقناع بالحجة الواضحة ، والإفهام بالدليل الظاهر

---

(١) لسان العرب مادة بين ١٦ /٣٠٨ ط الدار المصرية للتأليف والترجمة

(٢) سورة الرحمن ١ — ٤

(٣) الكشاف — ٤ : ٤٣ ط الحلبى ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م

(٤) سورة القيامة : ١٩

(٥) الكشاف — ٤ : ١٩١

والبيان بهذا التفسير مرادف للبلاغة(١) وقد ورد بهذا المعنى في قول الرسول ﷺ « إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكمة » ويوضح ابن الأثير في النهاية المراد منه بقوله « إن الرجل يكون عليه الحق وهو أقوم بحجته من خصمه فيقلب الحق ببيانه إلى نفسه ، لأن معنى السحر قلب الشيء في عين الإنسان وليس بقلب الأعيان ، ألا ترى أن البليغ يمدح إنسانا حتى يصرف قلوب السامعين إلى حبه ، ثم يذمه حتى يصرفها إلى بغضه »(٢) واستخدم عدد من علماء البلاغة والأدب متقدمين ومتأخرين ومعاصرين البيان بمعنى البلاغة السابق :

فمن المتقدمين : أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى ٢٥٥ هـ فقد جعل « البيان » عنوانا لكتابه « البيان والتبين » وقال في هذا الكتاب يفسر البيان تفسيرا لا يختلف عن تفسير البلاغة من ناحية المضمون « والبيان : اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان الدليل ، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع »(٣)

كذلك من علماء البلاغة المتقدمين الذين أطلقوا البيان على البلاغه « عبد القاهر الجرجاني » المتوفى سنة ٤٧١ هـ ، أو سنة ٤٧٤ هـ ، في كل من

---

(١) كما عرفها ابن وهب بأنها : « القول المحيط بالمعنى المقصود . مع اختيار الكلام وحسن النظام وفصاحة اللسان » البرهان في وجوه البيان ص ١٢٩

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر : ١٧٤ ط أولى عيسى الحلبي ١٣٨٣ هـ ١٩٧٣ م

(٣) البيان والتبيين ١ / ٧٦ ط رابعة الخانجي ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م تحقيق د : عبد السلام محمد هارون .

كتابيه : «دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة» فتحدث فى كل منهما عن البلاغة بصورة عامة ولم يفرد الأول لنظرية المعانى ، ولا الثانى لنظرية البيان كما يرى ذلك بعض المعاصرين(١) .

إذ ناقش عبد القاهر فى دلائل الإعجاز دروساً من المعانى والبيان والبديع ، وفى أسرار البلاغة دروساً من البديع والبيان فضلا على أنه كان معنياً فى كل من الكتابين بتوضيح أسرار النظم أو البلاغة ولم يكن تقسيم البلاغة إلى معان وبيان وبديع قدح لا بعد(٢) .

يؤكد ذلك غير ما سبق أنه فى مطلع « دلائل الإعجاز » الذى يرون أنه فى علم المعانى يتحدث عن البيان بمعنى البلاغة فيقول « ثم إنك لا ترى علماً هو أرسخ أصلا ، وأبسق فرعا ، وأحلى جنى ، وأعذب مورداً وأكرم نتاجا ، وأنور سراجا من علم البيان الذى لولاه لم ترلسانا يحوك الوشى ، ويصوغ الحلى ، ويلفظ الدر ، وينفث السحر ، ويقرى الشهد ويريك بدائع من الزهر »(٣) .

وقد صرح بعد ذلك بصفحات بمرادفة كلمة «البيان» للفصاحة والبراعة

---

(١) من هؤلاء المعاصرين : الدكتور/شوقى ضيف فى كتابه «البلاغة تطور وتاريخ » ص : ١٩٠ وما بعدها – ط دار المعارف ١٩٦٥ ، والدكتور عبد العزيز عتيق فى كتابه : فى تاريخ البلاغة العربية — بيروت ١٩٧٠ ص : ٢٤٦ وما بعدها .

(٢) الصبغ البديعى فى اللغة العربية — د . أحمد موسى ص : ٢٢١ وما بعدها ط أولى سنة ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٩م .

(٣) دلائل الإعجاز ص : ١٣ تحقيق : أحمد مصطفى المراغى ط التجارية .

فقال «ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء فى معنى الفصاحه والبيان والبراعة، وفى بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد بها»(١).

أجل لم تكن تلك الألقاب أخذت سبيلها إلى التحديد بعد كما رأينا عند «عبد القاهر» وأيضاً عند «ابن سنان الخفاجى» المتوفى سنة ٤٦٦ هـ، المعاصر لعبد القاهر الذى جعل عنوان كتابه: «سر الفصاحة» — فمن تجاوز الحد أن يقال إن كتاب «دلائل الإعجاز» فى علم المعانى وإن «أسرار البلاغة» فى علم البيان ولم نقف على كلمتى «المعانى» و«البيان» مقترنتين إلا بعد ذلك بما يقرب من قرن من الزمان عند الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨هـ. فى مطلع الكشاف حيث يقول «ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح»(٢). وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح(٣). من غرائب نكت يلطف مسلكها ومستودعات أسرار يدق سلكها(٤). علم التفسير الذى لا يتم لتعاطيه، وإجالة النظر فيه كل ذى علم.

كما ذكر الجاحظ فى كتاب نظم القرآن فالفقيه وإن برز على الأقران(٥) فى علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا فى صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية(٦) أحفظ، والواعظ وإن

---

(١) المرجع السابق ص: ٣٤

(٢) القرائح: الطبائع مفردها: قريحة.

(٣) القوارح: الكوامل الثوابت جمع قارح.

(٤) يلطف مسلكها: أى يدق طريق الوصول إليها فلا تسلك إلا بفكرة صائبة والسلك: الخيط.

(٥) الأقران: الأكفاء جمع قرن بالكسر.

(٦) ابن القرية: بكسر القاف وتشديد الراء المكسوره: أحد فصحاء العرب واسمه: أيوب والقرية: اسم أمه.

كان من الحسن البصرى أوعظ ، والنحوى وإن كان أنحى[١] من سيبويه ، واللغوى وإن علك اللغات بقوة لحييه[٢] ، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق ، إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعـــانى وعلم البيان » ومن البلاغيين المتأخرين الذين استعملوا « البيان » بمعنى البلاغة .

ضياء الدين بن الأثير الجزرى[٣] ، فى كتابه « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » الذى جاءت مباحثه فى مقــــدمة ومقالتين ، فتحدث فى المقدمة عن أصول علم البيان مريداً به البلاغة وفى المقالتين عن فروعه من الصناعتين : اللفظية والمعنوية وجعل القاضى « التنوخى » المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ، « البيان » عنواناً لكتابه « الأقصى القريب فى عـــلم البيان »[٤] .

واستعمله كذلك « ابن الزملكانى » عنوانا لكتابه « التبيان فى علم البيان المطلع على إعجاز القرآن »[٥] .

---

(١) من نحا ينحو إذا نظر فى علم النحو وتكلم فيه .

(٢) اللحى : منبت اللحية ، عبر بعلك اللغات عن ضبطها وإتقانها ودل على سهولة مأخذها : أى يكفى فيه تحريك اللحيين باستعمال اللسان .

(٣) المتوفى سنة ٦٣٧ هـ

(٤) وقد نشرته مكتبة الخانجى بالقاهرة سنة ١٣٢٧ هـ البلاغة تطور وتاريخ ص ٣١٦

(٥) طبع فى بغداد سنة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٤ م بتحقيق الدكتورين : أحمد مطلوب وخديجه الحديثى . والزملكانى : نسبة إلى قرية تسمى « زملكا » بغوطة دمشق وقد توفى سنة ٦٥١ هـ . فوات الوفيات : ٤ : ٧

ومن علماء البلاغة والأدب المعاصرين الذين أرادوا بالبيان البلاغة وجعلوه مراد فالها الدكتور : بدوى طبانه فقد جعله عنوانا لكتابه : البيان العربى[١] والدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) فى كتابها : الإعجاز البيانى للقرآن الكريم[٢] .

وهكذا نرى أن هــذا المعنى العـام للبيـان وهو جعله مرادفا للبلاغة قد تمثل فى جميع أطوار التأليف البلاغى : قديمه ومتأخره ومحدثه .

أما التفسير الثانى للبيان فإنه يختص بجانب من جوانب البلاغة ويتقيد بفنون محددة من فنونها المتعددة .

وقد عرفنا أن بوادر هذا التفسير المحدد لاحت أول ما لاحت على يد الزمخشرى حينما استهل كشافه بالتنبيه إلى أهمية تحصيل علمى المعانى والبيان لمن تتوق نفسه إلى معرفة ما تتضمنه آيات الذكر الحكيم من أسرار يدق مسلكها وتحدد مدلول هذه الكلمة بعد ذلك تحديداً نهائيا ظل يلازمها ،

---

(١) يؤكد ذلك قوله فى مقدمة الطبعة الخامسة للكتاب « أما بعد هذه الطبعة فقد حرصت فيهـا على أن يخلص الكتاب لدراسة « البيان » بمعناه الأعم الذى يرادف معنى البلاغة دراسة تقوم على تتبع نشأة هذا اللون من التفكير عند العرب ، ورصد مراحل نموه وتطوره فى الزمن منذ أول العهد به كلاماً فى القرآن الكريم ، ومحاولة لإثبات أعجازه حتى هذا العصر الحديث الذى تعددت فيه الأفكار ، وتباينت الآراء فى مفهوم البلاغة وغايتها .

البيان العربى ص : ٢٧٠ ط ٥ بيروت ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .

(٢) ط دار المعارف بمصر .

وما تزال تعرف به حتى الآن وذلك على يد أبى يعقوب السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ عندما حصر فى القسم الثالث من كتابه مفتاح العلوم ، البلاغة فى علمى : المعانى والبيان ومايتبعها من وجوه مخصوصة يصار إليها لتحسين الكلام وهى المحسنات البديعية : اللفظية والمعنوية — وحذر السكاكى كما فعل الزمخشرى من قبله من الأقدام على تفسير القرآن الكريم قبل إتقان هذين العلمين ، وبدأ السكاكى دراسته بعلم المعانى ، ثم بالبيان لتفرعه عن المعانى وختم دراسته بالمحسنات البديعية .

وعرف السكاكى علم المعانى بأنه : تتبع خواص تراكيب الكلام فى الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره(١) .

وعرف علم البيان بأنه : معرفة إيراد المعنى الواحد فى طرق مختلفة بالزيادة فى وضوح الدلالة عليه ، وبالنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ فى مطابقة الكلام لتمام المراد منه(٢) .

وبذلك يعد السكاكى البادىء الحقيق لتقسيم البلاغة ، والمحدد لمصطلحاتها على النحو السابق ، ثم أتم تقسيمه وأكمل تحديده « بدر الدين ابن مالك » المتوفى سنة ٦٨٦ هـ الذى جعل المحسنات البديعية علما مستقلا لتصبح علوم البلاغة ثلاثة وذلك فى كتابه المصباح فى علوم : المعانى والبيان والبديع(٣) ومضى فى إثره كل من جاء بعده على ذلك التقسيم والتحديد

---

(١) مفتاح العلوم ص ٧٧ ط أولى الحلبى : سنة ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م .

(٢) المرجع السابق .

(٣) واسم الكتاب : « المصباح فى اختصار المفتاح » وقد استمر زمنا طويلا مرجع طلاب البلاغة فى بلاد المغرب وعنى بشرحه عدد من المؤلفين وكان فى بلاد المغرب كتلخيص القزوينى فى بلاد المشرق . البيان العربى ص ٢٧٠

بدءا بصاحب : التلخيص والإيضاح [الخطيب القزويني][١] ومروراً بشراح التلخيص ، وانتهاء بالعصر الحاضر .

وعلى الرغم من تميز منهج السكاكي في تناول البلاغة عن مناهج من سبقه من حيث : التقسيم والضبط والتحديد وما لذلك المنهج من بعض الإفادة إلا أن الناقدين له لا يحصون عدداً ، ولعل مبحث الدلالات يعد من أوضح الأبحاث التي استشهد بها كثرة من البلاغيين والنقاد على عقم هذا المنهج وجموده وشدة خطورته على البلاغة والأدب وبالغ ضرره على الملكات والأذواق[٢] بل رأينا أحد علماء البلاغة المعاصرين يجعله عملا غير مشروع لا ينبغي الإبقاء عليه بقوله « المقياس الصريح للبلاغة يرفض أن تكون أنواع الدلالات بسبب من علم البيان ، فالدخيل لا يرقى إلى درجة الأصيل ، ولا يخفى أن مبحث الدلالات وإلصاقه بالبيان كان نتيجة لعمل غير مشروع اقترفه السكاكي في مفتاحه دلالة على فساد الذوق البلاغي وإفلاسه ، ومن هنا انحرفت الملكات البلاغية عن النهج العربي وسارت في الطريق التي ابتدعها السكاكي مؤثرة الإبر والأشواك على الشهد والورود متخذة من الألفاظ صناعة ، ومن الجهـــل بضاعة ، وكانت الأساليب العربية هي الضحية إذ أصبحت تقاس بحدود المنطق ورسومه ، وتضيع في زحام المصطلحات الفلسفية الغريبة عنها »[٣] .

وحيث ورد لفظ « الدلالة » في تعريف السكاكي السابق البيان رأيناه

---

(١) المتوفى سنة ٧٣٩ هـ .

(٢) ومن هؤلاء المرحوم الشيخ أمين الخولي الذي يقول « إن مقدمة الدلالات مقحمة بين يدي علم البيان ، وأنها مقدمة منطقية لا ينفع علمها في إدراك صور البيان التعبيرية ، ولا يضر جهلها ، بل تضر معرفتها حين تصرف عن تحرير المنهج . فن القول : ١٩٥

(٣) البلاغة التطبيقية د . أحمد موسى ص ٤ ط أولى .

يستهل حديثه عن علم البيان وقبل أن يخوض فى بحث مسائله بالكلام على أنواع الدلالات وعلاقتها بعلم البيان ، وجاء من بعده فأطالوا الوقوف عند أقسام الدلالات ، وتعريف كل منها ، وسبب تسميته بما سمى به — وما له منها علاقة بعلم البيان ، وما ليست له علاقة به إلى غير ذلك من أمور تجعله إلى المنطق أقرب منه إلى البلاغة — مما دفع واحداً من المتأخرين أنفسهم ومن شراح التلخيص للتبرم بهذا المبحث والمناداة بإقصائه وحذفه من وجه البيان وذلك هو سعد الدين التفتازانى(١) فى قوله « هذا هو الكلام فى شرح مقدمة علم البيان على ما اخترعه السكاكى وأنت خبير بما فيه من الاضطراب والأقرب أن يقال : علم البيان .

علم يبحث فيه عن التشبيه والمجاز والكناية ثم يشتغل بتفصيل هذه المباحث من غير التفات إلى الأبحاث التى أوردها فى صدر هذا الفن »(٢) .

ولكن على كثرة ما يتوجه به الباحثون والدارسون من انتقادات لبلاغة المتأخرين عموماً ، ومن ذم وعيب لمبحث الدلالات خصوصا وتنقية البلاغة منه — فإن هذه البلاغة ماتزال المورد الذى يرده الدارسون فى كثير من مدارس العربيه وما ينفك مبحث الدلالات مدخلا يلجه أولئك الدارسون لعلم البيان — أعنى مبحث الدلالات — من حيث : أهميـــة الدلالات ، وأقسامها وتعريف كل قسم -- وعلاقة كل منها بعلم البيان — والنتائج التى تترتب على ذلك — وذلك من خلال موازنة أمينة ودقيقة بين ما قرره المتأخرون وما ورد منه عند المتقدمين [عبد القاهر] لنرى إن كان مبحث الدلالات أصيلا أم دخيلا وإن كان السكاكى فيه مبتدعا أم متبعاً ؟

---

(١) المتوفى سنة ٧٩١ هـ .

(٢) المطول ص ٣٠٩ أحمد كامل — القاهرة .

الفصل الأول

الدلالات : أقسامها — منزلتها من البلاغة والبيان

تحدث السكاكى فى مطلع كلامه عن علم البيان عن أقسام الدلالات وأنها : وضعية ، وعقلية والعقلية إما : تضمنية أو التزامية مبينا سبب تسمية كل منها بما سميت به فيقول : لا شبهة فى أن اللفظـــة متى كانت موضوعة لمفهوم أمكن أن تدل عليه من غير زيادة ولا نقصان بحكم الوضع ، وتسمى هذه دلالة المطابقة ودلالة وضعية ، ومتى كان لمفهومها ذلك ولنسمه أصلياً تعلق بمفهوم آخر أمكن أن تدل عليه بوساطة ذلك التعلق بحكم العقل سواء كان المفهوم الآخر داخلا فى مفهومها الأصلى كالسقف مثلا فى مفهوم البيت وتسمى هذه دلالة التضمن ودلالة عقليه أيضا ، أو خارجاً عنها كالحائط عن مفهوم السقف وتسمى هذه دلالة الالتزام ودلالة عقلية أيضاً(١) .

ذلك ما ذكره السكاكى فى مطلع البيان عن أقسام الدلالات التى ورد ذكرها فى تعريفه له ، وجاء شراح التلخيص من بعده فزادوا فى التقسيمات وأكثروا من المناقشات التى كادت تقطع علاقة ذلك المبحث بالبلاغة والبيان ويتخيل الدارس أنه مبحث فى المنطق زج به فى كتب البلاغة ولا يمت إليها بنسب فعرفوا الدلالة بأنها : كون الشىء بحيث يلزم من العلم به العلم بشىء آخر فالشىء الأول هو الدال ، والشىء الثانى هو المدلول.

وقسموا الدلالة بحسب الدال إلى قسمين : لفظية ، وغير لفظية

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٦

وذكروا أن غير اللفظيه : كدلالة الخطوط ، والعقود ، والنصب ، والإشارات ودلالة الأثر على المؤثر كالدخان على النار، وأنه لا علاقة لهذه الدلالة بعلم البيان لأن موضوعه : إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه ؛ وعرفوا اللفظية بأنها ما كان الدال فيها لفظا ، وأنها ثلاثة أقسام :

وضعية ، وعقلية ، وطبيعية . فالوضعية : ما كان للوضع فيها مدخل كدلالة الأسد على الحيوان المفترس ، حيث عين الواضع لفظ « الأسد » للدلاله على معناه ، والعقلية : ما كان قوام الدلالة فيها العقل ، كدلالة اللفظ المسموع من وراء ستار على وجود لافظه — والطبيعية : ما كان قوام الدلالة فيها الطبع كدلالة (التأوه) على الألم ، فإن طبع اللافظ يقتضى التلفظ بذلك عند إلمام الألم به — وذكروا أن هاتين الدلالتين الأخيرتين (العقلية ، والطبيعية) لا علاقة لهما كذلك بعلم البيان لعدم انضباطهما ، ولا ختلافهما باختلاف الافهام والطبائع — ثم قسموا اللفظية الوضعية إلى ثلاثه أنواع : مطابقية ، وتضمنية ، والتزامية لأن اللفظ .

إما أن تعد دلالته بالنسبة إلى تمام مسماه ، أو بالنسبة إلى ما هو داخل فى مسماه . أو بالنسبه إلى ما هو خارج عن مسماه .

فالأول : المطابقية مثل : دلالة الإنسان على تمام المعنى الذى وضع له وهو (الحيوان الناطق) والسر فى تسميتها مطابقية : أن اللفظ والمعنى تطابقا وتساويا ، واصطلحوا على تسمية تلك الدلالة « وضعية » .

والثانية هى : التضمنية . كدلالة (الإنسان) على « الحيوان » فقط أو على « الناطق » فقط ، والسر فى تسميتها تضمنيه أن المدلول وهو « الحيوان » أو « الناطق » جزء من معنى « الانسان » والجزء داخل فى ضمن المعنى الموضوع له والكل متضمن لأى واحد من أجزائه — .

والثالثة هى : الالتزامية ، كدلالة لفظ (الإنسان) على الضحك والسر

في تسميتها : التزامية — أن الضحك ليس معنى الإنسان وليس جزء معناه، وإنما هو أمر خارج عن معناه لازم له واصطلحوا على تسمية كل من التضمنية والالتزامية (عقلية) لأن دلالة اللفظ على جزء معناه أو على لازم معناه متوقفة على أمر عقلي زائد على العلم بالوضع وهو أن وجود الكل يستلزم وجود الجزء . وأن وجود الملزوم يستلزم وجود اللازم(١).

فتلك أقسام الدلالات عند السكاكي ومن جاء بعده من البلاغيين وقد تحدث السكاكي عن الدلالات كما ذكرنا لورودها ضمن تعريفه لعلم البيان ، لذا بين أقسامها وعلاقة كل قسم منها بعلم البيان ، وكان مختصرا في تقسيماته كما رأينا أما الإكثار من التقسيمات والتفسيرات فكان لشراح التلخيص من بعده — .

وقد تبين لنا أن السكاكي مسبوق ببحث الدلالات وأن عددا من البلاغيين من قبله قد تحدثوا عن الدلالات مع اختلاف بينه وبينهم في الصيغة والموطن الذي ورد فيه الحديث، ومن ثم لا يصح القول بأن بحث الدلالات مقحم على البلاغة وأنه عمل غير مشروع ألصقه السكاكي بالبلاغة .

فقد ذكر الجاحظ في (البيان والتبيين) أن الدلالة على المعاني تكون لفظية وغير لفظية ، وكلاهما خمسة أقسام : اللفظ ، والإشارة والعقد(٢) والخط . ثم الحال التي تسمى نصبة، والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ، ولا تقصر عن تلك الدلالات وقد وضح الجاحظ كل قسم

---

(١) شروح التلخيص ٣ / ٢٦٢ وما بعدها وبغية الإيضاح ٣ / ٢ وما بعدها والمطول ص : ٣٠١ وما بعدها

(٢) ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين يقال له : حساب اليد

من هذه الأقسام ذاكرا الشواهد الموضحة له ، وجاعلا الدلالة باللفظ هي البيان[١] .

ونستطع من غير عناء أن نفهم سر الحديث عن أنواع الدلالات وأنه الصله القوية بينها وبين الموضوع الذي يختصه الجاحظ بالدراسة وهو « البيان » بالمعنى العام المرادف للبلاغه لا بالمعنى الذي حدده السكاكي .

كما تابع الجاحظ في الحديث عن أنواع الدلالات بعض من جاء بعده كابن وهب[٢] في كتابه : « البرهان في وجوه البيان » والرماني المتوفى سنة ٣٨٦ هـ في كتابه : النكت في إعجاز القرآن وغيرهما[٣] .

كما تحدث « عبد القاهر » عن أقسام الدلالات إلى : وضعية ومعنوية ولم يكثر من التقسيمات كما رأينا عند الجاحظ من قبله والمتأخرين وعلى رأسهم السكاكي من بعده .

كما لم يكن كلام « عبد القاهر » على الدلالات في مطلع الحديث عن علم البيان كما فعل المتأخرون إذ لم يكن البيان تحدد عنده كما ذكرنا وإنما تعلق كلامه على الدلالات بعموم البلاغه كما فعل الجاحظ من قبله ، إذ

---

(١) البيان والتبين ١ : ٧٥ وما بعدها

(٢) هو أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب من علماء القرن الرابع الهجري — البرهان في وجوه البيان ص:٣٧ تحقيق: د. أحمد مطلوب ود. خديجة الحديثي

(٣) مصطلحات بلاغيه ص ٦٩ ، ٧٠ د. أحمد مطلوب ط أولى ١٣٩٢ هـ سنة ١٩٧٢ م والبرهان في وجوه البيان جـ ١ : ٦٥ تحقيق د. حفني شرف

وثلاث رسائل في اعجاز القرآن ص : ١٠٦ ط ثانيه دار المعارف

عرض « عبد القاهر » للدلالات أثناء حديثه عن : المعنى ومعنى المعنى وذلك متعلق بجميع فنون البلاغة، والسكاكى فى تقسيمه للدلالات متأثر كثيرا «بعبد القاهر» لدرجة أنه ينقل بعضا من عباراته بنصها كما نتبين بعد، والاختلاف بينهما فى الموطن الذى نوقشت فيه الدلالات كما بينا ، وفى بعض النتائج التى ترتبت على ذلك النقاش وحتى يكون كلامنا أكثر تحديدا وتأكيدا فأنا نسوق كلام « عبد القاهر » فى ذلك لنزداد اقتناعا بما بينه وبين السكاكى حول تقسيم الدلالات من اتفاق واختلاف ، وقد ذكرنا من قبل كلام السكاكى .

لقد جاء حديث « عبد القاهر » عن الدلالتين اللفظية والمعنوية أثناء كلامه على المعنى الأول والمعنى الثانى فى قوله « الكلام على ضربين : ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده . وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج على الحقيقة فقلت : خرج زيد وبالانطلاق عن عمرو فقلت : عمرو منطلق وعلى هذا القياس . وضرب آخر أنت لا تصل منه الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذى يقتضيه موضوعه فى اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر على الاستعارة والكناية والتمثيل .

وإذ قد عرفت هذه الجملة فهاهنا عبارة مختصرة وهى أن تقول : المعنى ومعنى المعنى ، تعنى بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذى تصل إليه بغير واسطة ، وبمعنى المعنى : أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر(١).

فجعل المتأخرون وعلى رأسهم السكاكى ذلك مقدمة لعلم البيان عرفت بالدلالات وقسموها إلى : لفظية وغير لفظية ، وقسموا اللفظية إلى : وضعية وعقلية والعقلية إلى تضمنية والتزامية كما مر ،

(١) دلائل الإعجاز ص ١٨٠

مسألة التعقيد المعنوى :

وإذا كان المتأخرون قد خالفوا « عبد القاهر » فى الموضع الذى ورد فيه ذكر الدلالات ، حيث جعلوها مقدمة لعلم البيان فى عرفهم وكانت عنده ضمن الكلام على المعنى ومعنى المعنى الذى يتصل بجميع فنون البلاغة وليس بالبيان وحده(١) فإنهم خالفوه فى مسألة ثانية وردت أيضاً فى حديثه عن الدلالات ، وهى مسألة التعقيد المعنوى — الذى رآه « عبد القاهر » من عيوب الأسلوب ، ومخرجا له من نطاق البلاغة وحدد سببه فى : فساد العلاقة ، وتكلف الصلة أو بعدها بين المعنى الأول والمعنى الثانى كما فى قول العباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا
وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

حيث جعل الشاعر : جمود العين دليل سرور وأمارة غبطة وكناية عن أن الحال حال فرح ، لظنه أن الجمود خلو العين من البكاء مطلقاً من غير اعتبار شىء آخر ، وقد أخطأ فى ذلك ، لأن الجمود خلو العين من البكاء فى حال إرادة البكاء منها فلا يكون كناية عن المسرة ، وإنما يكون كناية

---

(١) ذكر عبد القاهر الكناية والتمثيل والاستعارة كأمثلة لمعنى المعنى لا يعنى أنه ينحصر فيها أوحدها حيث يتمثل المعنى الثانى أو معنى المعنى فى كثير من مسائل علم المعانى : كتخريج الكلام على خلاف مقتضى ظاهر الحال ووقوع الخبر موقع الإنشاء والعكس . وفى بعض فنون البديع كالتوريه والاستخدام والمشاكلة ، واقتصاره على ذكر الفنون الثلاثة السابقة للدلالة على أنها أظهر ما يبرز فيها المعنى الأول والمعنى الثانى .

عن البخل(١) وتجنباً للتعقيد المعنوى الذى يفسد نظم الكلام ويخل ببلاغته ويرهق السامع ويتبعه فى الوصول إلى المطلوب ذكر « عبد القاهر » أن من شرط البلاغة أن يكون المعنى الأول سهل التعلق . وقريب الاتصال بالمعنى الثانى تحاشياً للتعقيد الذى يستهلك المعنى(٢) .

ذلك ماورد عن التعقيد المعنوى فى حديث « عبد القاهر » عن الدلالات وهو كما ترى مرتبط بموضوع الحديث ومتصل به(٣) ولكن ماذا فعل به المتأخرون ؟

لقد نقل المتأخرون كلام « عبد القاهر » السابق عن التعقيد المعنوى إلى مقدمة البلاغة عندهم أعنى « الفصاحة » وجعلوا التعقيد المعنوى عيباً من عيوب فصاحة الكلام ، يحترز عنه بدراسة علم البيان .

فيقول الخطيب « وما يحترز به عن الثانى — أعنى التعقيد المعنوى هو : علم البيان(٤) .

ويقول سعد الدين التفتازانى : « . . . . فمست الحاجة إلى علم به يحترز عن التعقيد ليتم أمر البلاغة فوضعوا لذلك علمى المعانى والبيان وسموهما علم البلاغة لمكان مزيد اختصاص لهما بها(٥) .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٨٦

(٢) المرجع السابق ص ١٨٣

(٣) انظر : المدخل إلى دراسة البلاغة ص ٩٢ د . فتحى فريد — مكتبة النهضة المصرية .

(٤) بغية الإيضاح ١ : ٢١ ومابعدها .

(٥) المطول ص ٣٣

ولهذا يفهم كثير ممن يقرأون مقدمة البلاغة عند المتأخرين « الفصاحة والبلاغة » أن علم البيان يدرس فقط لتجنب وقوع التعقيد المعنوي في الكلام — بينما هو في الحقيقة متنوع الأهداف متعدد الفوائد بما يضيفه إلى المعاني من وضوح وبيان . ومبالغة وتأكيد وغير ذلك من فضائله على الأساليب والتي تعبر عنها صوره من : التشبيه والمجاز والكناية وأنه لأسمى بكثير من أن يحصر الهدف من دراسته في تجنب التعقيد المعنوي .

وهكذا نستخلص من الموازنة السابقة حول أقسام الدلالات ما يلي :

١ — أن مبحث الدلالات ليس من ابتداع السكاكي أو من أعماله غير المشروعة التي ينبغي تنقية البلاغة منها كما أشار إلى ذلك بعض البلاغيين ، وإنما هو موجود في التراث البلاغي المتقدم للحاجة إليه في تبين وجوه البيان بمعنى البلاغة كما رأينا عند الجاحظ ، ولمعرفة أقسام الكلام ومراتبه من حيث البلاغة كما رأينا عند عبد القاهر .

٢ — إن البلاغيين المتأخرين وعلى رأسهم السكاكي اقتدوا بعبد القاهر في تقسيمهم للدلالات ، لكن إكثارهم من التقسيمات ، وجعلهم الدلالات مقدمة لعلم البيان أخرج البحث عن مهمته التي وضع لها عند الجاحظ وعبد القاهر وجعله إلى المنطق وتقسيماته أقرب منه إلى البلاغة وروعتها .

٣ — إن التعقيد المعنوي عيب من عيوب بلاغة الأساليب منشؤه بعد العلاقة بين المعنى الأول والثاني في كل أبواب البلاغة وفنونها : معان وبيان وبديع ولا يختص بفصاحة الكلام أو بعلم البيان .

٤ — إن دراسة : الدلالات ، والتعقيد المعنوي ينبغي أن تتم في الموقع الذي يتعلقان به ، وفي الدائرة التي يوجدان داخلها أعني : دائرة البلاغة بصفة عامة ، وليس ضمن علم البيان بالنسبة للدلالات ، أو ضمن الفصاحة بالنسبة للتعقيد المعنوي .

الفصل الثاني

الدلالة الوضعية بين التفاوت وعدمه

حيث اشتمل تعريف السكاكى لعلم البيان كما سبق على عبارة «فى وضوح الدلالة عليه» رأينا السكاكى والبلاغيين من بعده يهتمون فى الكلام على أنواع الدلالات ببيان مايتفاوت منها وضوحاً وخفاء وما لا يتفاوت، وما له منها علاقة بعلم البيان وما ليست له علاقة به. فيقرر السكاكى أن إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه لا يتأتى بالدلالة الوضعية وإنما يتأتى بالدلالة العقليه، ويوضح السكاكى عدم التفاوت فى الدلالة الوضعية بقوله «إنك إذا أردت تشبيه الخد بالورد فى الحمرة مثلا وقلت: خد يشبه الورد امتنع أن يكون كلام مؤدياً لهذا المعنى بالدلالات الوضعية أكمل منه فى الوضوح أو أنقص، فإنك إذا أقمت مقام كل كلمة منها مايرادفها فالسامع إن كان عالماً بكونها موضوعة لتلك المفهومات كان فهمه منها كفهمه من تلك من غير تفاوت فى الوضوح وإلا لم يفهم شيئاً أصلا(١).

كما يوضح السكاكى تحقق التفاوت فى الدلالة العقلية وعلاقتها بعلم البيان فيقول «وإنما يمكن ذلك فى الدلالات العقلية مثل أن يكون لشىء تعلق بآخر وبثان وبثالث فإذا أريد التوصل بواحد منها إلى المتعلق به فمتى تفاوتت تلك الثلاثة فى وضوح التعلق وخفائه صح فى طريق إفادته الوضوح والخفاء»(٢).

وتابع السكاكى البلاغيون من بعده فى نفى التفاوت عن الدلالة الوضعية وإثباتها للعقلية فالخطيب القزوينى يصرح بذلك فى تعريفه للبيان بقوله: هو

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٦ (٢) المرجع السابق.

علم يبحث عما يعلم منه كيفية إيراد المعنى فى أفضل الطرق دلالة عقلية(١) .

والعلوى يقول فى الطراز(٢) : محاسن الكلام لا يجوز أن تكون راجعة إلى الدلالات الوضعية لسببين :

أولا : لأن الكلمة قد تكون فصيحة إذا وقعت فى محل وغير فصيحة إذا وقعت فى محل آخر فلو كان الأمر فى الفصاحة والبلاغة راجعاً إلى مجرد الألفاظ الوضعية لما اختلف ذلك بحسب اختلاف المواضع .

وثانياً : لأن الاستعارة والتشبيه والتمثيل والكناية من أعظم أبواب الفصاحة وأبلغها ، وإنما كانت كذلك باعتبار دلالتها على المعانى لا باعتبار ألفاظها ، فصارت الدلالة على وجهين : دلالة وضعية ، وهذه لا تعلق لها بالبلاغة والفصاحة ، وذلالة معنوية ، ودلالتها إما بالتضمن أو بالالتزام وهما عقليان(٣) . والبلاغيون المتأخرون فيما ذهبوا إليه من نفى التفاوت

---

(١) شروح التلخيص : ٣/١٥٦

(٢) المتوفى سنة ٧٤٩ هـ وهو يحيى بن حمزة العلوى اليمنى . البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٢٠

(٣) الطراز : ٣ : ٤١٣ ، ٤١٤ ، وقد طال نقاش البلاغيين المتأخرين وجدالهم حول موضوع عدم تفاوت الدلالة الوضعية ، فأبدى بعضهم اعتراضه على ذلك ، وتصدى آخرون لتلك الاعتراضات ، ومن تلك الاعترضات : عدم استقلال الدلالات الثلاث : المطابقية والتضمنية والالتزامية ودخول كل منها فى الأخرى ورد عليه ابن يعقوب المغربى بأن تحديد كل منها تحديداً قاطعاً يعود لقصد المتكلم ونيته — شروح التلخيص ٣/٢٦٦ وما بعدها كما أجاب على اعتراض آخر بحضور بعض المعانى إلى الذهن بسرعة . والبعض الآخر بعد ترو وتمهل مما يثبت تفاوت الدلالة الوضعية بأن ذلك مرده لطلب تذكر الوضع المنسى لالخفاء الدلالة — المرجع السابق ص : ٢٧٦ ومابعدها واعترض بعض=

عن الدلالة الوضعية واثباته للعقلية مقتدون بعبد القاهر الذى أثبت التفاوت للمعنوية (العقلية) ونفاه عن اللغوية (الوضعية) فى قوله « وكذلك إذا جعلوا المعنى يتصور من أجل اللفظ بصورة ويبدو فى هيئة ويتشكل بشكل يرجع المعنى فى ذلك كله إلى الدلالات المعنوية ولا يصلح شيء منه حيث الكلام على ظاهره ، وحيث لا يكون كناية وتمثيل ولا استعارة ولا استعانة فى الجملة بمعنى على معنى ، وتكون الدلالة على الغرض من مجرد اللفظ. فلو أن قائلا قال : رأيت الأسد . وقال آخر : لقيت الليث لم يجز أن يقال فى الثانى إنه صور المعنى فى غير صورته الأولى ولا أن يقال : أبرزه فى معرض سوى معرضه ولا شيئاً من هذا الجنس(١).

كما اقتدى البلاغيون المتأخرون بعبد القاهر فى استدلاله على نفى التفاوت عن الدلالة اللغوية (الوضعية) بنقل نص عباراته فى ذلك .

« ذلك لأنه لايخلو السامع من أن يكون عالما باللغة وبمعانى الألفاظ التى يسمعها أو يكون جاهلا بذلك ، فإن كان عالما لم يتصور أن يتفاوت حال الألفاظ معه فيكون معنى لفظ أسرع إلى قلبه من معنى لفظ آخر ، وإن كان جاهلا كان ذلك فى وصفه أبعد .

وجملة الأمر أنه إنما يتصور أن يكون لمعنى أسرع فهما منه لمعنى آخر إذا كان ذلك مما يدرك بالفكر ، وإذا كان مما يتجدد له العلم به عند

= البلاغيين بأن أحد اللفظين المترادفين قد يكون أكثر استعمالا وبأن المفسر قد يكون أوضح من المفسر بفتح السين - فيتأتى حينئذ الاختلاف فى الوضوح والخفاء بالنسبة للدلالة الوضعية المطابقية ، وأجاب على ذلك « بهاء الدين السبكى » بأن المفسر والمفسر مختلفان ، إذ يدل المفسر على الهيئة الاجتماعية ، وأن كثرة استعمال أحد المترادفين لأمر عارض . شروح التلخيص ٣ / ٢٧٨

(١) دلائل الإعجاز ص : ١٨٠ ، ١٨١

سمعه الكلام ، وذلك محال فى دلالات الألفاظ اللغوية ؛ لأن طريق معرفتها التوقيف والتقدم بالتعريف »(١)

وحيث اقتدى المتأخرون بعبد القاهر كما رأينا فى نفى التفاوت عن الدلالة الوضعية وإثباته للعقليه فأى فرق بينهما فى ذلك ؟

والجواب : أن كلام « عبد القاهر » السابق لا يمثـــل كل جوانب المسألة ، وإنما يمثل جانبا منها ، أى أنه لا يعتمد عليه فقط فى تصوير رأى « عبد القاهر » فى ذلك والاعتماد عليه وحده يعد اعتمادا ناقصا ، ومن هنا يجىء اختلاف المتأخرين عن « عبد القاهر » فما رأى « عبد القاهر » كاملا فى تلك المسألة .

الألفاظ المفردة :

إن « عبد القاهر » يريد بنفى التفاوت عن الدلالة الوضعية : ما يتعلق بالألفاظ المفردة — أعنى ألفاظ المعجم التى تؤدى معنى واحدا ولم توضع فى تركيب أو تنظم فى أسلوب ، إذ لا قيمة لهذه الألفاظ فى ذاتها وإنما قيمتها فى علاقتها بالتركيب ، وحسنها فى دقة وقعها من نظم الكلام

وقد أشار « عبد القاهر » إلى ذلك فى عدة مواطن منها قوله فى مطلع أسرار البلاغة « ومن ههنا يبين للمحصل ، ويتقرر فى نفس المتامل كيف ينبغى أن يحكم فى تفاضل الأقوال إذا أراد أن يقسم بينها حظوظها من الاستحسان ويعدل القسمة بصائب القسطاس والميزان ومن البين الجلى أن التباين فى هذه الفضيلة ، والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة ليس بمجرد اللفظ كيف ؟ والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف ، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب »(٢) .

---

(١) دلائل الإعجاز ص : ١٨٢ ، ١٨٣

(٢) أسرار البلاغة ص : ١ ، ٢

ويصرح « عبد القاهر » فى دلائل الإعجاز بنفى التفاوت عن الألفاظ المفردة المتحدة المعنى البعيدة عن التركيب ، ويثبته لها حين تقع فى أساليب تختلف فى هيئة تأليفها وفى طريقة تركيبها حيث يقع التفاوت بينها من غير شك فيقول « قولك إنه يصح أن يعبر عن المعنى الواحد بلفظين يحتمل أمرين : أحدهما : أن تريد باللفظين كلمتين معناهما واحد فى اللغة مثل الليث ، الأسد – ومثل شحط وبعد – وأشباه ذلك مما وضع اللفظ فيه لمعنى – .

ثانيهما : أن تريد كلامين فإن أردت الأول خرجت من المسألة لأن كلامنا نحن فى فصاحة تحدث من بعد التأليف دون الفصاحة التى توصف بها اللفظة مفردة ومن غير أن يعتبر حالها مع غيرها ، وإن أردت الثانى ولا بد لك من أن تريده فليس شىء أبين وأوضح وأحرى أن يكشف الشبهة عن متأمله فى صحة ما قلناه من التشبيه فإنك تقول : زيد كالأسد أو مثل الأسد أو شبيه بالأسد ، فتجد ذلك كله تشبيها غفلا ساذجا ، ثم تقول كأن زيدا الاسد فيكون تشبيها إلا أنك ترى بينه وبين الأول بونا بعيدا[١] »

اتفاق النظم واختلافه

وإذا كان المتأخرون قد غاب عنهم الجانب السابق وهم يتابعون « عبد القاهر » فى نفى التفاوت عن الدلالة الوضعية ، فقد غاب عنهم جانب آخر أشد أهمية وأكبر خطرا ، إذ قرروا عدم تفاوت الدلالة الوضعية فى عموم الأحوال كما عرفنا ، بينما قيد « عبد القاهر » ذلك الحكم فى موطن آخر باتفاق النظم أما عند اختلاف النظم فإن التفاوت واقع لا محالة ومن أوضح الشواهد على ذلك الأساليب التى يختلف معناها لاختلافها بالتقديم والتأخير مع اتحاد الألفاظ فيما بينها ، ويؤكد ذلك قول عبد القاهر : « وهذه مسائل لا يستطيع أحد أن يمتنع من التفرقة بين

---

(١) دلائل الإعجاز ص : ٢٧٥

تقديم ما قدم فيها وترك تقديمه ، ومن أبين شيء في ذلك الاستفهام بالهمزة فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت : أفعلت فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه ، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده ، وإذا قلت : أأنت فعلت ؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو وكان التردد فيه .(١)

ولعل من أوضح الشواهد على تحقيق التفاوت عند اختلاف النظم ما ذكره عن العلاقة بين النظم والنحو وأن أي تغير في نظم الكلام يدل على تغير في معناه ويتحقق ذلك مع : الخبر ، والشرط والجزاء ، والحال والنفي ، والفصل والوصل ، والتعريف والتنكير والتقديم والتأخير ، والحذف والتكرار ، والاضمار والإظهار — والتي جعل منها المتأخرون دروس علم المعاني فيما بعد ومما ذكره عن اختلاف المعنى لاختلاف النظم في وجوه الخبر : زيد منطلق ، وزيد ينطلق وينطلق زيد ، ومنطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد ، وزيد هو المنطلق ، وزيد هو منطلق .

فإن لكل عبارة من هذه العبارات معنى يختلف عما قبلها وما بعدها وذلك محدد ومعروف في موطنه من كتب البلاغة .

ومما سبق نستطيع أن نحدد ما بين المتأخرين وعبد القاهر حول القول بعدم تفاوت الدلالة الوضعيه من اتفاق واختلاف ، وأن المتأخرين لم ينقلوا رأي عبد القاهر كاملا عن عدم تفاوت الدلالة الوضعية ، ولذلك كان حكمهم الجائر بعدم تفاوتها في كل الأحوال ، وما تولد عن ذلك الحكم من نتائج لا يقرها العقل كما سيظهر بعد ذلك أما تفاوت الدلالة الوضعية عند اختلاف الأساليب كما ذكر عبد القاهر فإنه عين الصواب وهو الذي تقرره طبيعة اللغة وتؤكده أساليبها .

---

(١) دلائل الإعجاز ص : ٨٥ ، ٨٦

الفصل الثالث

منزلة التشبيه من علم البيان

عرفنا رأي المتأخرين وعلى رأسهم السكاكي في أقسام الدلالات وعلاقة كل منها بعلم البيان ، وأن الدلالة الوضعية المطابقية لا تتفاوت وضوحا وخفاء مما يقطع علاقتها بعلم البيان الذي ينحصر في الدلالة العقلية بنوعيها ، التضمنية والالتزامية ، لتحقق التفاوت فيها — واستنتجوا من ذلك : أن علم البيان يتمثل في المجاز والكناية وأن التشبيه ليس من البيان لكون دلالته وضعية .

وإنما جعل بابا من أبوابه لحاجة الاستعارة إليه وترتبها عليه ويستهل السكاكي حديثه عن علم البيان بالتصريح بذلك فيقول ، وإذا عرفت أن إيراد المعنى الواحد على صور مختلفة لا يتأتى إلا في الدلالات العقلية وهي الانتقال من معنى إلى معنى بسبب علاقة بينهما كلزوم أحدهما بوجه من الوجوه ظهر لك أن علم البيان مرجعه اعتبار الملازمات بين المعاني . وإذا ظهر لك أن مرجع علم البيان هاتان الجهتان (الإنتقال من اللازم إلى الملزوم ، أو من الملزوم إلى اللازم) علمت انصباب علم البيان إلى التعرض للمجاز والكناية . فإن المجاز ينتقل فيه من الملزوم إلى اللازم كما تقول : رعينا غيثا — والمراد لازمه وهو النبت ، وأن الكناية ينتقل فيها من اللازم إلى الملزوم كما تقول ، فلان طويل النجاد — والمراد : طول القامه هو ملزوم طول النجاد فلا علينا أن نتخذهما أصلين .

ثم إن المجاز أعني الاستعارة من حيث إنها من فروع التشبيه لا تتحقق

بمجرد حصول الانتقال من الملزوم إلى اللازم بل لابدفيها من تقدمة تشبيه شيء وبذلك الملزوم فى لازم له تستدعى تقديم التعرض للتشبيه فلابد من أن نأخذه أصلا ثالثاً ونقدمه فهو الذى إذا مهرت فيه ملكت زمام التدرب فى فنون السحر البيانى(١) .

وأطال البلاغيون بعد السكاكى النقاش فى هذه المسألة وجمهورهم على متابعته فيما حكم به على التشبيه فالخطيب القزوينى يقول فى أبواب علم البيان ووجه حصرها « ثم اللفظ المراد به لازم ما وضع له إن قامت قرينة على عدم إرادة ما وضع له فهو مجاز وإلا فهو كناية ، ثم المجاز منه الاستعارة، وهى ما تبتنى على التشبيه فيتعين التعرض له فانحصر المقصود فى التشبيه والمجاز والكناية ، وقدم التشبيه على المجاز لما ذكرنا من ابتناء الاستعارة التى هى مجاز على التشبيه ، وقدم المجاز على الكناية لنزول معناه من معناها منزلة الجزء من الكل »(٢) .

كما حمل بعض البلاغيين على السكاكى لجعله التشبيه بابا فى البيان على الرغم من كون دلالته وضعية ، والتمسوا لذلك تفسيراً يخالف ما سبق وهو كثرة مباحثه وتنوع فوائده(٣) فالمولى عصام(٤) يذكر أن ما قرره

---

(١) المفتاح ص ١٥٧

(٢) بغية الايضاح ٣/٦

(٣) وكذلك قال ابن يعقوب المغربى: إن كثرة أبحاثه وجموع فوائده أوجب جعله بابا مستقلا وعلى هذا فهو مقدمة فى المعنى ، وإنما جعل بابا تشبيها له بالمقصود فى كثرة الأبحاث ، شروح التلخيص ٣/٢٩٠

(٤) من شراح التلخيص ، واسم شرحه : الأطول ، وقد توفى سنة ٩٥١ هـ . البيان العربى ص ٢٧٠

السكاكي يستدعي تقديم التشبيه على الاستعارة وجوبا ، وعلى المجاز استحساناً ، كيلا يقع الفصل بين أنواع المجاز .

وأما أخذه أصلا ثالثا فلا يستدعيه أصلا ، بل الواجب أن يجعل مقدمة خارجة عن مقاصد هذا الفن ، ويؤيده ما قيل من أن دلالات التشبيهات من حيث هي : دلالات وضعية لا عقلية ، ويسوق المولى عصام عذره بأنه وإن كان في الحقيقة مقدمة خارجة ، لكنه لكثرة مباحثه وأقسامه ، وعموم تفاصيله وأحكامه ، وتشعب فروعه ، وقوة نفعه في المطالب البيانية قد ارتقى عن أن يجعل مقدمة فلهذه الضرورة قد اتخذه أصلا ادعائيا لا حقيقيا .

ثم يقول : ولا يذهب عليك أن في جعل التشبيه أصلا ثالثا من البيان بهذا القدر تكلفا بارداً أراد السكاكي ترويجه بالمبالغة في العبارة حيث قال : فلابد من أن نأخذه أصلا ثالثا ، مع أنه قال في الأصلين الحقيقيين : « المجاز والكناية ، فلا علينا أن نتخذهما أصلين »(١) .

وحيث تتبعنا السكاكي والبلاغيين من بعده في : تقسيم الدلالات وذكرنا أنهم لم يزجوا بحث الدلالات في حقل الدراسات البلاغية كما ذكر ذلك بعض البلاغيين والنقاد ، وإنما كانوا متأثرين بمن سبقهم إلا أن إغراقهم في التقسيمات ومبالغتهم في الجدل والاعتراضات هي التي أبعدت ذلك البحث عن هدفه الذي وضع له وأوضحت أنه دخيل على البلاغة وقريب من المنطق — كما بينا أن تقسيمهم للدلالات إلى وضعية وعقلية اقتداء بعبد القاهر لكنه اقتداء غير كامل حيث أخذوا بعض رأيه وتركوا معظمه — فأنا نرى كذلك أن رأيهم السابق حول التشبيه من أوضح آرائهم

---

(١) فن التشبيه : على الجندي ٢٥/١ نقلا عن « شرح الفوائد الغياثية » ص ١٩٥

فى البيان والدلالات تجاوزا للصواب وتجافيا للعقل والمنطق ، وخطأ السكاكى والبلاغيين من بعده فى ذلك لا يجهل سببه بعد ما تقدم ، إذ بنوا حكمهم هذا على فهم قاصر لكلام عبــــد القاهر عن الدلالة الوضعيه فجاء استنتاجهم خاطئا ، وكان يكفى فى تقرير أن التشبيه يتفاوت وضوحا وخفاء وأنه من علم البيان فى مقام كريم بما سبق توضيحه من تفاوت الدلالة الوضعية ، لكنا رأينا زيادة فى تأكيد القول إنصافا للتشبيه واعترافا بعظيم منزلته أن نسوق أدلة أخرى تحقق له الصدارة وتثبت له الأصالة من البيان : على القول بأن دلالة التشبيه وضعية .

فقد ذكرنا فيما مضى الرأى المفصل لعبد القاهر فى تفاوت الدلالة الوضعية إذا اختلف النظم ، وقد زاد عبد القاهر المسألة توضيحا بتقديمه عدداً من أساليب التشبيه التى اختلفت معانيها قوة وضعفا لاختلاف بين أدواتها ، ولاختلاف فى ترتيبها فيقول : « وجملة الأمر أن صور المعانى لا تتغير بنقلها من لفظ إلى لفظ حتى يكون هناك اتساع ومجاز وحتى لا يراد من الألفاظ ظواهر ما وضعت له فى اللغة ولكن يشار بمعانيها إلى معان أخر ، واعلم أن هذا كذلك ما دام النظم واحداً فأما إذا تغير النظم فلابد حينئذ من أن يتغير المعنى كقولك : إن زيداً كالأسد ، وكأن زيداً الأسد ذاك لأنه لم يتغير من اللفظ شىء ، وإنما تغير النظم فقط . . .

ألا ترى أن ليست المزية التى تجدها لقولك : كأن زيداً الأسد على قولك : زيد كالأسد شيئا خارجا عن التشبيه الذى هو أصل المعنى وإنما هو زيادة فيه وفى حكم الخصوصية فى الشكل ، نحو أن يصاغ خاتم على وجه وآخر على وجه آخر تجمعهما صورة الخاتم ، ويفترقان بخاصة وشىء يعلم إلا أنه لا يعلم منفرداً »(١) .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٨١ ، ١٨٢

ويزيد « عبد القاهر » توضيح ذلك في مكان آخر فيقول: « إنك تقول: زيد كالأسد ، أو مثل الأسد ، أو شبيه بالأسد فتجد ذلك كله تشبيها غفلا ساذجا ثم تقول : كأن زيدا الأسد فيكون تشبيها أيضا ، إلا أنك ترى بينه وبين الأول بونا بعيداً لأنك ترى له صورة خاصة ، وتجدك قد فخمت المعنى وزدت فيه بأن أفدت أنه بلغ من الشجاعة وشدة البطش وأن قلبه قلب لا يخامره الذعر ولا يدخله الروع ، بحيث يتوهم أنه الأسد بعينه ثم تقول : لئن لقيته ليلقينك منه الأسد فتجده قد أفاد هذه المبالغة ، لكن في صورة أحسن وصفة أخص ، وذلك أنك تجعله في [كأن] يتوهم أنه الأسد ، وتجعله هنا يرى منه الأسد على القطع فيخرج الأمر عن حد التوهم إلى حد اليقين »(١) .

— الدلالة الوضعية في التشبيه لا تظهر إلا في زاوية محددة منه وهي أدواته التي منها : الكاف ، ومثل ، وكأن ، وغيرها .

وبعد ذلك يقوم العقل والخيال بدور كبير في صنع التشبيه وتأليفه ولذا كان علو التشبيهات وارتفاع قدرها بمقدار ما فيها من عمق الفكر وبعد الخيال ، وذلك يجعلني أرى أن دلالة التشبيه مجموعة من الوضعية والعقلية مع زيادة حظه من العقلية ، ولقد ذكر « عبد القاهر » من قبل في في « أسرار البلاغة » أن التشبيه قياس ، والقياس يجري فيما تعيه القلوب ، وتدركه العقول وتستفتى فيه الأفهام والأذهان لا الأسماع والآذان(٢) .

ومن الغريب أن نجد لبعض المتأخرين الذين قرروا عدم تفاوت التشبيه لكون دلالته وضعية ما يؤكد رأينا السابق من أن التشبيه يجمع في دلالته بين الوضعية والعقلية على الرغم من إصرارهم على ما ذهبوا إليه وأن دل

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧٧

(٢) أسرار البلاغة ص ١٤

ذلك على شيء فإنما يدل على تأكد خطئهم في قولهم بعدم تفاوت التشبيه ، وعلى تناقضهم في أحكامهم ، فيذكر المولى عصام أن دلالة التشبيهات من حيث هي : دلالات وضعية لا عقلية ، لكن ليس المقصود الأصلي المعاني الوضعية فقط ، فإن قولك « وجه كالبدر » مثلا لا تريد به ما هو مفهومه وضعا ، بل تريد ذلك الوجه المتناهي في الحسن ، لكن ذلك لا ينافي إرادة المفهوم الوضعي(١) .

وكذلك يذكر ابن يعقوب المغربي أن « وجه كالبدر » مدلوله المطابقي ، أن الوجه يشبه البدر في الاستدارة والاستنارة وهو المراد مع إرادة لازمه وهو أنه في نهاية الحسن .

ولصحة أن يراد من التشبيه المعنى المطابقي ، وهو اتصاف المشبه بوجه الشبه أو لازمه صح وجود الخفاء والوضوح فيه مع أنه ليس من الكناية ولا من المجاز بل من المطابقة اتفاقا(٢) .

فترى كيف يدل كلام العصام وابن يعقوب على ما في التشبيه من تفاوت مع إصرارهما على أن دلالته مطابقيه ؟

وأشد غرابه مما سبق ، وأوضح دلالة على تناقض المتأخرين في حكمهم على التشبيه — ما ذكروه عن مراتب التشبيه من ناحية طرفيه وأدواته ، ووجهه بقربه أو بعده ، وإفراده أو تركيبه وغير ذلك .

وقد تحدث السكاكي في نهاية التشبيه عن « مراتب التشبيه » من حيث

---

(١) راجع : فن التشبيه ٢٧/١

(٢) في : مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح — وهو أحد شروح التلخيص وقد توفي ابن يعقوب سنة ١١١٠ هـ — البلاغه تطور وتاريخ ص ٢٥٧

أركانه فذكر أن أركان التشبيه أربعة : المشبه ، والمشبه به ، أداة التشبيه ، وجه الشبه ، وأن مراتبه فى القوة والضعف فى المبالغة من حيث ذكر الأركان كلها أو بعضها ثمانى مراتب : أضعفها : زيد كالأسد فى الشجاعة وأقواها : زيد أسد وأنهى السكاكى كلامه بذكر أن التشبيه كذلك له مراتب باعتبار أقسامه من كون وجه الشبه فيه مفرداً أو مركباً حسياً أو عقلياً إلى غير ذلك من أقسامه(١) .

فنرى كيف جعل السكاكى التشبيه يتفاوت بالنسبة لكل ركن من أركانه فى الوقت الذى يجعله غير أصيل فى البيان لكون دلالته وضعية لا تتفاوت وضوحاً ولا خفاء — موقفان متناقضان ، ولكنها على حد رأى أحد علماء البلاغة المعاصرين ينبئان عن مبلغ الاضطراب الذى ألمع إليه سعد الدين التفتازانى فى تمرده على مقدمة السكاكى لعلم البيان ، وهما فى ذات الوقت فى صالح التشبيه الذى يعد من علم البيان فى أكرم محل وأسمى مكان(٢) .

لقد عد بعض علماء البلاغة التشبيه من المجاز . ومنهم : ابن الأثير ضياء الدين(٣) ، ويحيى بن حمزة العلوى(٤) وابن حجة الحموى(٥) وغيرهم . واختلف بعضهم فى التشبيه المضمر الأداة أهو من قبيل التشبيه أم من قبيل الاستعارة(٦) وعلى القول بأنه مجاز ونحن لا نميل إليه فإن تفاوته

(١) المفتاح ص ١٦٨ وبغية الإيضاح ٣/٨٠

(٢) البلاغة التطبيقية د / أحمد موسى ص ١٥

(٣) المثل السائر : ١/١٣٨ — القاهرة .

(٤) الطراز ١/٢٦٠ ، ٢٦١

(٥) خزانة الأدب : ٥٣٢ ط بيروت . وقد توفى الحموى سنة ٨٧٣ هـ انظر : الصبغ للبديعى ص ٣٩٠

(٦) انظر البلاغة التطبيقية ص ٢٢١ وما بعدها .

ليس محلا لنقاش لكون دلالته عقليه ، أما على أنه من الحقيقة وهو ما نؤيده لاتفاقه مع قوانين اللغة .

فقد عرفنا أن المتأخرين وعلى رأسهم السكاكى يجعلونه من مقدمات علم البيان وليس من مقاصده لعدم تفاوت دلالته الوضعية وعرفنا مبلغ الخطأ فى ذلك وسره ووقفنا من خـــلال الأمثلة على تفاوت الدلالة الوضعية ، وعلى القول بأنه يجمع فى دلالته بين الوضعية والعقلية كما رجحنا فإنه متفاوت لا محالة كما وضحنا ذلك وسواء أكانت دلالته وضعية أو وضعية وعقلية ، أو عقلية ، فإنه فن أصيل من فنون البيان ، بل إنه الأساس الذى تبنى عليه وجوه البيان الأخرى من مجاز بأقسامه وكناية بوجوهها .

خاتمـــة البحث

ونخرج من هذا البحث بعدد من النتائج منها :

١ — أن مبحث الدلالات كغيره من بقية أبحاث البلاغة التى تأثر فيها المتأخرون بالمتقدمين ، وليس من ابتداع السكاكى أو مما أدخله على البلاغة كما رأى ذلك بعض الباحثين .

٢ — أن له صلة قوية بعموم البلاغة ، حيث يوضح وجوه التعبير عن المعانى الذى هو موضوع البلاغة ، لذا تعد الدعوة بإلغائه وتنفية البلاغة منه دعوة مبالغاً فيها .

٣ — لم يتجاوز ذلك البحث هدفه الذى وضع له إلا على يد المتأخرين الذين حولوه إلى بحث فى أقسام الدلالات ما يتفاوت منها وما لا يتفاوت .

٤ — أن يجعل ذلك البحث مدخلا للبلاغة وليس للبيان وحده على منهج الجاحظ ، وعبد القاهر وليس على منهج المتأخرين .

المراجع

المؤلف	الكتاب	بيانات
١ ـ ابن حجة الحموى	خزانة الأدب	ط بيروت
٢ ـ ابن شاكر الكتبي	فوات الوفيات	تحقيق د / إحسان عباس ط بيروت
٣ ـ ابن منظور	لسان العرب	الدار المصرية للتأليف والترجمة
٤ ـ ابن يعقوب المغربي	مواهب الفتاح	من شروح التلخيص ط الحلبي
٥ ـ أبو هلال العسكرى	الصناعتين	تحقيق على البجاوى ومحمد أبو الفضل
٦ ـ أحمد حسن الزيات	دفاع عن البلاغة	مطبعة الرسالة ١٩٤٥ م
٧ ـ أحمد مصطفى المراغى	علوم البلاغه والتعريف برجالها	ط أولى
٨ ـ أحمد مطلوب (د)	مصطلحات بلاغية	ط أولى ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م
٩ ـ أحمد موسى (د)	الصبغ البديعى	ط أولى ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م
١٠ ـ أحمد موسى (د)	البلاغة التطبيقية	ط أولى ١٩٦٣ م
١١ ـ أمين الخولى	البلاغة وعلم النفس	مجلة كلية الآداب
١٢ ـ أمين الخولى	فن القول	ط الحلبي

المؤلف	الكتاب	بيانات
١٣ — بدوى طبانة (د)	البيان العربى	ط. خامسة بيروت ١٩٧٢ م
١٤ — الجاحظ	البيان والتبيين	تحقيق د/ عبد السلام هارون ط. رابعة
١٥ — حامد عبد القادر	دراسات فى علم النفس الأدبى	المطبعة النموذجية
١٦ — الخطابى	بيان إعجاز القرآن	ط. ثانية دار المعارف ١٩٦٨ م
١٧ — درويش الجندى (د)	علم المعانى	دار نهضة مصر
١٨ — الرمانى	النكت فى إعجاز القرآن	ط. ثانية دار المعارف ١٩٦٨ م
١٩ — الزمخشرى	الكشاف	ط. الحلبى ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م
٢٠ — سعد الدين التفتازانى	المطول	ط. أحمد كامل
٢١ — السكاكى	مفتاح العلوم	ط. أولى الحلبى ١٣٥٦ هـ — ١٩٣٧ م
٢٢ — سيد قطب	النقد الأدبى : أصوله ومناهجه	ط. خامسة بيروت . ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣ م
٢٣ — السيوطى	المزهر	تحقيق: جاد المولى وآخرون
٢٤ — السيوطى	الإتقان	تحقيق : محمد أبو الفضل ط. أولى ١٩٦٧ م
٢٥ — السيوطى	معترك الأقران	تحقيق : على البجاوى — دار الفكر

المؤلف	الكتاب	بيانات
٢٦ — السيوطى	حسن المحاضرة	تحقيق / محمد أبو الفضل ط أولى ١٩٦٧ م
٢٧ — السيوطى	التحدث بنعمة الله	تحقيق : اليزابث مارى سارتين — المطبعة الحديثة
٢٨ — السيوطى	التحبير فى علم التفسير	تحقيق : د / فتحى فريد دار العلوم بالرياض ١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م.
٢٩ — شوقى ضيف (د)	البلاغة تطور و تاريخ	دار المعارف ١٩٦٥
٣٠ — ضياء الدين بن الأثير	المثل السائر	ط قديمة — القاهرة
٣١ — عبد العزيز عتيق (د)	فى تاريخ البلاغة	بيروت ١٩٧٠
٣٢ — عبد القاهر الجرجانى	دلائل الإعجاز	تحقيق : أحمد مصطفى المراغى
٣٣ — عبد القاهر الجرجانى	أسرار البلاغة	تحقيق : السيد محمد رشيد رضا
٣٤ — عبد المتعال الصعيدى	بغية الإيضاح	ط سادسة
٣٥ — عز الدين (د) إسماعيل (د)	التفسير النفسى للأدب	دار المعارف للأدب
٢٦ — على الجندى	فن التشبيه	ط ثانية ١٩٩٦ م
٣٧ — فتحى فريد (د)	المدخل إلى دراسه البلاغة	مكتبة النهضة المصرية — ١٩٧٨ م

المؤلف	المكتبات	بيانات
٣٨ — القاضى الجرجانى	الوساطة بين المتنبى وخصومه	
٣٩ — كامل الخولى (د)	أثر القرآن فى تطور البلاغة العربية	ط أولى.
٤٠ — ماهر حسن فهمى (د)	المذاهب النقدية	مكتبة النهضة المصرية .
٤١ — محمد خلف الله (د)	من الوجهة النفسية .	
٤٢ — محمد عبد المنعم خفاجى (د)	عبدالقاهر والبلاغة العربية	ط أولى سنة ١٩٥٢
٤٣ — محمد مندور (د)	النقد والنقاد المعاصرون	مكتبة نهضة مصر .
٤٤ — محمد نايل (د)	نظرية العلاقات	دار الطباعة المحمدية
٤٥ — مصطفى الجوينى (د)	منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن	دار المعارف .
٤٦ — يحيى العلوى	الطراز	ط المقتطف ١٩١٤ م

المحتوى

رقم الإيداع بدار الكتب

٢٨٨٩ / ١٩٨٤ م

الترقيم الدولى ٢— ٠٤٠ — ١٠٠ — ٩٧٧